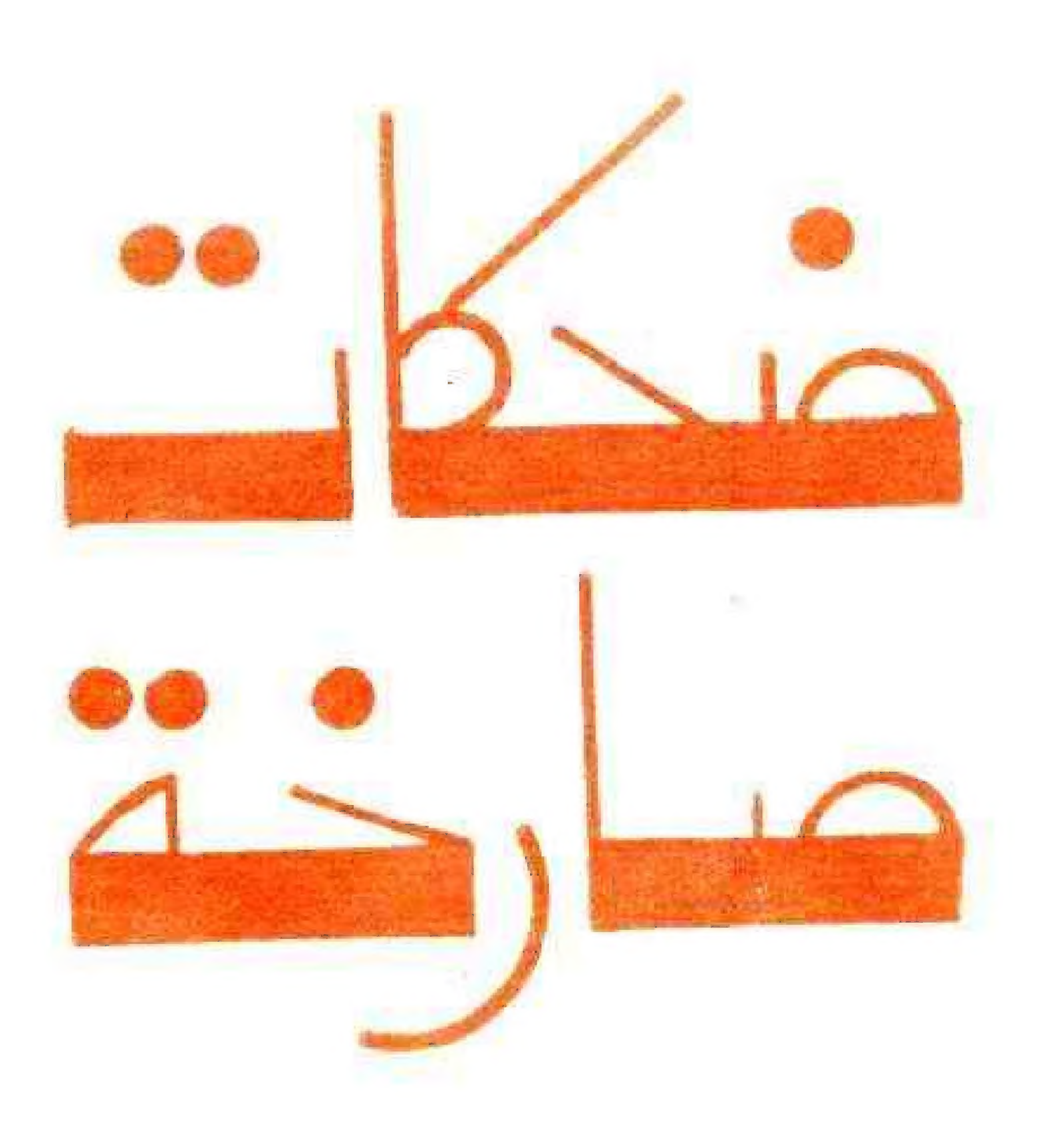

DVD4ARAB
ضحكات صارخة
DVD4ARAB
DVD4ARAB
محمد عفيفي
DVD4ARAB
DVD4ARAB



محمد عفيفي

* الفصــل الاول *



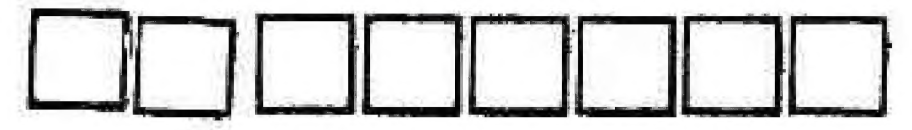
شاهد البطون ...

الغـلاف

بريشة الفنان الكبير

الاستاذ حسـين بيكار

* مضحكات ومبكيات *



لاحظت

أكثر من مرة أن المنظر الواحد يمكن أن يكون محزنا جدا فى بعض الاوقات ، ويمكن أن يكون ــ نفس المنظر ــ آية فى الاضحاك فى أوقات أخرى ·
وخير مثال لذلك قشرة الموز الملقاه على أرض الطريق ·· اذا كانت الناس ما زالت تأكل الموز وترمى قشره ·

رجل عجوز يتقدم منها ولا يراها فيدوس عليها ويتزحلق ويسقط على الارض ، تكاد تسمع صوت طرقعة عرقوبه العتيق وهو يصطدم بالارض القاسية ، منظر محزن جدا بغير شك ·

ثم تخيل فى مكان ذلك الرجل العجوز شابا ضخم الجثة يقترب من تلك القشرة ، مختالا مزهوا ينظر الى الآخرين فى استعلاء ، ثم يدوس على القشرة ·· وهوب !! ·· يندلق فجأة على الارض مثل الجردل ، واذا بكل تلك الالاطة قد تبعثرت حوله على الرصيف مثل قشور الترمس التى يتخلص منها آكل مهمل ، اذا كانت الناس مازالت تأكل الترمس وترمى قشره · فهذا منظر مضحك بقدر ما كان المنظر السابق محزنا ، مع أن القشرة هى القشرة ، والسقطة هى السقطة ، والعرقوب هو العرقوب·

ونفس الكلام ينطبق على أنثى أليطة مثل ذلك الشاب ، مختالة متهادية تنظر الى الناس شذرا ، مع لمسة أضافية من البهجة فى المنظر

اذا كان فستانها أقرب الى القصر ، مع مراعاة سرعة الرياح فى ذلك اليوم ·

ونفس الكلام ينطبق على الجرسون حين يتزحلق فى المطعم وفى يده صينية محملة بأصناف الطعام · هو منظر مضحك دائما بسبب ما نعرف عن رذالة الكثير من الجرســـونات ، ولكن الامر يختلف بالنسبة للمكان الذى تستقر فيه أصناف الطعام الساقطة · اذا كان هذا المكان هو بدلتى أنا أو بدلتك أنت فلا شك أن هذا منظر أليم أشد الالم ، فاجع أشد الفجيعة ، بعكس الحال عندما تستقر تلك الاصناف على بدلة رجل غيرنا · لا أحد يستطيع ألا يضحك حين يرى بنطلون الرجل أيا كان لونه وقد تحول الى اللون الاخضر بفعل صحن الملوخية ، فى حين أصبحت جاكتته حمراء بفعل الدمعة ، وقطعة من البوفتيك قد استقرت متأرجحة فوق صلعته ، ومن جيب جاكتته العلوى تطل بعض قرون البامية الرومى ·

وهذا نفس الحال مع الرجل ذى العين الوارمة الزرقاء · اذا تخيلت أنه قد اكتسب تلك العين الوارمة الزرقاء فى معركة غير متكافئة فأنت ترثى له وتحزن عليه ، بالرغم من علمك بأن الرجل العاقل يربأ بنفسه عن خوض المعارك غير المتكافئة وخاصة اذا كان ذلك فى يوم حار من شهر يونية ·

ونفس هذا المنظر قد يضحك اذا تخيلت أن تلك العين الوارمة الزرقاء قد حدثت له على يد السيدة زوجته أو حماته ، لا سيما اذا كان يبدو من مظهره أنه موظف كبير ·

وقد تتعقد الامور بعض الشىء عندما يكون المنظر منظر جنـــازة يتصدرها نعش كبير أحمر ، فالمفروض على الدوام أن الجنازة منظر محزن حتى ولو تنهدنا وتصعبنا ، وقلنا أن الرجل قد ارتاح من طابور الجمعية وزحام الاتوبيس ومسلسلات التليفزيون · لانه اذا كان هو قد ارتاح فهناك زوجته المسكينة التى لن تجد بعد اليوم من تناكفه وتعكنن عليه حياته ، وأولاده الغلابة الذين يتكدسون فى فصل المدرسة مثل الفراخ فى القفص ·· ويدرسون نفس المناهج



ويزدادون يوما بعد يوم جهلا ·

غير أننى لا أحب أن أضحك عليك أو تضحك على ، بقولنا انه لا يوجد من الجنازات ــ على سبيل الاستثناء ــ ما يملأ النفس بهجة وسرورا · هذا أمر يجد الانسان شيئا من الصعوبة فى الاعتراف به ، ولكن الرجل القوى لا يجد مانعا من أن يعترف بالحقائق مهما كانت اليمة · وليس غريبا أن تشعر بشىء من البهجة وأنت تسير فى جنازة رجل ما ، اذا كان هذا الرجل قد آذاك فى حياته وأهانك وأهدر كرامتك وسرق فلوسك وخرب بيتك · نعم ان الفرحة هنا لا تخلو من المرارة ، ولكنك لن تستطيع أن تنكرها أو تخفيها بتلك التنهيدة العالية ·

ولا نستطيع بالطبع أن نختتم هذه المفارقات الخاصة بالمنظر الواحد ما بين البهجة والالم ، دون الاشارة الى منظر وجهك ــ ووجهى طبعا ــ حين نراه فى المرآة ونحن نحلق ذقننا · أنظر اليه كيف هو ضاحك مبتهج اذا كنت فى آخر الشهر وكم هو عابس كئيب اذا كنت فى آخر الشهر ·· اذا كانت الناس مازالت تفرق بين أول

****

● ست سنية وحلة الملوخية ●

أحست سنية هانم ــ سونة كما تسميها صديقاتها ــ برغبة شديدة فى أن تتغدى اليوم بالملوخية الخضراء ، بشرط أن يكون بجانبها صحن محترم من الطرشى البلدى ، شرائح الخيار المخلل واللفت وقرون الفلفل ، السابحة فى الماء الحراق الذى تنوى أن تملأ منه كوبا لتشربه مع الاكل شفطة شفطة · والحمد لله أن عندها فى الثلاجة فرخة نجحت فى الحصول عليها من الجمعية عن طريق أم رتيبة الدلالة · صحيح أن المذكورة أخذت نصف ريال فاصبح ثمن الفرخة مائة وعشرين قرشا ، ولكنها ما تزال أرخص من الفرخة التى تباع عند البقالين ــ وهى طبعا نفس الفرخة ·

وارتفع فى الطريق صوت مبحوح يقول : ـ صابحة ياملوخية

فرقص قلب سونة طربا ، وهبت مسرعة تهز وراءها نحوا من ثلاثين كيلو ، متجهة الى البلكونة حيث اسندت على السياج عشرة كيلو وهى تصيح قائلة :

ـ بكام كيلو الملوخية ياعم !

فسعل الرجل وبصق وصاح :

ـ تلاتين قرش ٠

ـ أنا لسه واخداها امبارح بعشرين ٠

وكانت تعرف انها تكذب ولكن الفصال هو الفصال ٠

ـ أوزن لك بربع جنيه ؟

ـ زى بعضه ٠٠٠ أوزن ٠٠٠ بس عاوزين الميزان يطب !

وراح الراجل يزن الملوخية فى حين أدلت هى الحبل الطـــويل الذى فى آخره سلة وقالت :

ـ الميزان لسه ما طبش !

ـ ما طبش ؟ ده فاضل شوية ويطب ميت ؟

وبينما تسحب السلة بالملوخية تذكرت ما تحكيه أمها من انها كانت تشترى الحزمة الكاملة بقرش صاغ ، فى حين تؤكد خالتها الكبرى انها كانت تشتريها بمليم ٠

الى المطبخ بالملوخية ، حيث استعرضت فى ومضة ذهنية خاطفة طقوس تصنيع الملوخية ٠ على الرخامة فرشتها واحضرت مصفـــاة كبيرة وضعتها بجانبها ، وراحت تقطف أوراق الملوخية وتودعها فى المصفاة ورقة ورقة ٠ وقد يتساءل جاهل عن السبب الذى من اجله اختارت المصفاة بدلا من حلة عادية ، وجواب ذلك انها بانتهائها من تقطيف الاوراق ـ حاجة زى نص ساعة كده ـ سوف تضعها تحت الحنفية لكى تزيل عنها أتربة واسمدة الحقل٠ فهل فهم السيد الجاهل فضل المصفاة على الحلة العادية ؟

فاذا ما انتهت من تقطيف الملوخية وغسلها فهنا يأتى دور الطقس الثانى من طقوس الملوخية وهو تجفيفها ، استعدادا للطقس الثالث

وهو خرطها ٠ فاحضرت جريدة قديمة بسطتها ونثرت فوقها أوراق الملوخية متباعدة كى تجف على مهلها ، وكان مكتوبا فى الجريدة أن الحكومة جادة فى تثبيت اسعار السلع ٠

وكانت قبل كل ذلك قد وضعت الفرخة على النار لتنضج ، غير ناسية أن تضيف الى الماء بصلة وبعض حبات الحبهان لكى تكتمل له النكهة الواجبة ٠ وضرورى جدا أن يتواجد على السـفرة ذلك الصحن اللذيذ من الطرشى البلدى والآن وفى انتظـار ان تجف الملوخية حان وقت اعداد التقلية ، فأين وضعت علبة الكسبرة يا سنية ؟ آه ، هاهى ذى بجانب علبتى الفلفل والكمون ٠ أما الثوم فهو بالطبع معلق فى البلكونة على الحائط ، مثل أى ثوم محترم فى أى بيت مصرى أصيل ٠

فاحضرت سونة تومة كبيرة من البلكونة وفصصتها ، ووضعتها فى الهون مع شىء من الكسبرة ، ثم شرعت فى الدق ٠ وهذا ابغض طقوس الملوخية لما يسببه لها من تعب عضلى ، ولو كان عنـدها شغالة صغيرة لحملت عنها هذا العبء ٠ لكن زوجها موظف محدود الدخل لا يقدر على هذا اللون من الترف ، خاصة انه لم يسبق له ان أحيل فى أى وقت الى النيابة الادارية ٠

ومع دقات الهون صوت بقبقة للماء الذى تسبح فيه الفرخة ، وبخار شهى الرائحة يعبق المطبخ محملا باريج الحبهان ٠ فلا باس يا سونة بشىء من التعب فى سبيل أكلة ملوخية ممتعـة ، لاسيما اذا كنت سوف تبلعين كل لقمة عيش أو ملعقة أرز بشفطة من ماء الطرشى ٠

والآن وقد مر نصف ساعة آخر لابد أن تكون الملوخية قد جفت وحان وقت تخريطها ٠ على الرخامة وضعتها سونة وتناولت المخرطة وهات يا خرط ٠ عملية متعبة طبعا ولكنها أهون من دق الهون ٠ فلو كان زوجها يدخن لطلبت منه ان يبطل السجائر ويحضر لهـا شغالة ، ولكنه للاسف لا يدخن ٠

والآن قد حان وقت تسبيك التقلية ، فى حلة صغيرة بها ملعقة

سمن ، توضع على النار وتترك لتشكشك حتى يحمر لونهـــا . وسرعان ما يتضوع المطبخ بتلك الرائحـــة الفريدة ذات الشـخة النفاذة التى تتغلغل فى حنايا الصدر والقلب ، الرائحة المنبثقة من اعمق أعماق الارض المصرية ، من فوهـــة بركان تفتحت منذ آلاف السنين وما زالت تتدفق منها الى اليوم حمم الملوخية الساخنة !

****

* عن الشمس والقصب ! *

كتبت كثيرا عن الشمس ، ولا أظننى سأزهق من الكتابة عنها ابدا . شمس الشتاء العظيمة حين تسطع بعـــد غياب يومين وراء الغيوم ، فيلقى الرجل البردان بنفسه فى احضانها وهو يوشك أن يذوب من فرط الشوق . الشمس الساخنة التى تتسلل الى جوف العروق ، وتسرى فيها حتى يصبح دم الانسان أشبه بفنجان كاكاو دافىء تخالطه لمسة صغيرة غير مسكرة من نبيذ عمر الخيام . ثم تنفذ الى النخاع الذى فى جوف العظـــام ، وتتغلغل فى أعماق كل خلية من بلايين الخلايا التى يتكون منها الجسم ، فيشعر الانســان كانه سمكة سعيدة تقلى على نار هادئة فى زيت التموين المدعم ..

ومن عادة بعض الناس اذا جلسوا تحت هذه الشمس ان يمصوا القصب ، وذات يوم كنت واحدا منهم عندما كانت أسنانى تسمح بهذا النوع من المقامرة . وبالطبع لولا وجود الشمس ماكان يمكن أن يوجد القصب اصلا ، لا هو ولا أى نبات آخر على وجه الارض . ويا له من عالم ، ذلك الذى ليس فيه أى نوع من النبات ، لابسلة فيه ولا بامية ، ولا تين ولا زيتون ، ولا باذنجان ولا كوسة ــ وان كنا لا نجد مانعا من الاستغناء عن تلك الاخيرة . ولاخيار ولاقفوس ولا قتة ، ولا بطاطس ولا قلقاس ، ولا بطاطة بلدى ياللى تشترى . ولا خس ولا جرجير ، ولا بقدونس يفرش لك تحت كيلو الكباب الذى أصبح ثمنه أربعة جنيهات . ولابصل أخضر أو أبيض ، ولا



ثوم تعلقه على حائط البلكونة لكى تغيظ به من ليس عندهم ثوم ..

عالم ليس فيه ــ ستترك يارب ! ــ ملوخية ولا طماطم ، فتحرم الى الابد من ذلك المنظر الفاتن ، منظر التناقض اللونى المبهج بين الخضرة العميقة الوقور فى صحن الملوخية ، والحمرة الضـاحكة اللعوب فى صحن الدمعة .

عالم ليس فيه والعياذ بالله ليمون بنزهير ، ما من ليمونة واحدة تعصرها على صحن البامية الذى هو باللحمة ، أو صحن الفول الذى هو بالزيت . أو تصنع منها كوب لموناته تشربه هنيئا مريئا وتقول الحمد لله ، تتزود منه بفيتامين سى الذى يقيك شر الزكام فى هذا الوقت الذى أصبح المنديل فيه بالشىء الفــلانى ــ أو تعصرها ــ الليمونة ــ فى فمك بدون ماء أو سكر لكى تصلح بها ما فسد من معدتك بعد مشاهدتك أحد مسلسلات التليفزيون .

عالم ليس فيه ــ رحمتك يارب ! ــ بطيخة حمراء اللون فاقعة ، تتناول الشقة العظيمة منها باليدين وتنهشها حتى يسيل عصيرها على عنقك ويتسرب الى صدرك من خلال جاكتة بيجامتك البوبلين . ثم تجمع بذورها السوداء ــ اللب ولا مؤاخذة ــ وتضعها فى الشمس حتى تجف . ثم تملحها وتضعها على النار حتى تســـتوى وتصبح لبا صالحا للقزقزة . واللب تجمعه وتودعه فى قرطاس كبير من ورق أحدى المجلات الادبية ، وتتوجه به الى حيث تشاهده ــ على صــوت

القزقزة المطرب ـ مسرحية هادفة فى المسرح القومى ٠

عالم ليس فيه ـ وهذه داهية الدواهى ـ قمح ولا ذرة ، أى ليس فيه خبز ولا دقيق ٠ ما من رغيف أسود اللون بقرش تعريفة تسد به جوعك ، وما من رغيف هائل أبيض بستين قرشا تسد به جوع هيلتون ٠ وما من جاتوه أو بتى فور ، وما من كحك أو غريبة فى عيد الفطر ٠ وما من باتون ساليه أو ساليزون ، ويارحمة الله على أيام الساليزون ! وما من تورتة بعشرة جنيهات تحتفل الاسرة حولها بعيد ميلاد المحروس السابع ، ثم تسعى انت فى اليوم التالى الى أخيك لكى تستلف منه ما تأكلون به بقية الشهر ، اذا تصادف ان كان أخوك صاحب توكيل أو سمكريا أو سباكا ٠٠

ويبدو اننا نسينا شيئا جوهريا جدا ، فحاول يا حلو ان نتخيل عالما ليس فيه فول ولا طعمية !

فاذا نظرت الى السماء الزرقاء الصافية فأحن رأسك احتراما وقل الحمد لله على نعمة الشمس والقصب والملوخية !

****

* دليل المرأة الذكية الى فـراخ الجمعية *

اعرف يا سيدتى ان عيالك قد اشتاقت للفراخ ، وان الفـراخ عند الفرارجى ، وان هذا يبيعها بأسـعار لا تطيقهـا ماهية زوجك الموظف الذى يعول ستة اطفال ، فى انتظار الطفل السـابع الذى تخططين له حاليا ٠ فلم يبق أمامك اذن سوى التماس الفراخ فى الجمعية ، ولهذه العملية شروط ومواصفات نحب أن نشرحها لك علشان ما ترجعيش تقولى ماحدش قالى ٠

النصيحة الاولى

اصحى بدرى ! اضبطى المنبه على الساعة الخامسة صباحا ، على بال ما تلبسى وتخرجى تبقى ستة ، توصلى الجمعية سبعـــة على الاكثر ، صحيح ان باب الجمعية لايفتح قبل التاسعة ، ولكن هذا التبكير لكى تقفى فى أول الطابور أمام الباب المغلق ٠ غير ان هذا الامر مشكوك فيه فسوف تجدين أن الطابور موجود هنـــاك من بدرى ، وهو ما يدل على ان هناك نساء يستيقظن فى الساعة الرابعة ، ونساء يستيقظن فى الثالثة ، ونساء يبدو من أمرهن أنهن قد بتن على رصيف الجمعية ٠

الزى المناسب

لا ننصحك بان تلبسى ثوبا جديدا عزيزا عليك ، بل البسى أقدم جونلة عندك وأبغض بلوزة الى نفسك ، فاليوم ليس يوم استعراض للاناقة ، بل هو بلغة السياسة يوم استعراض للقوة ٠



وفي هذا الطابور قد يحدث بينك وبين أحدى الدلالات نوع من الحوار الفكرى المنبثق من واقع الطابور . ولذلك نرجو أن لا تكونى قد لبست الباروكة . فقد تمد الدلالة يدها الى شعرك لتشدك منه فتطلع الباركة فى يدها وتتمزق ، فى حين انها لو شدت شعرك الطبيعى لما زاد الامر عن وجع بسيط فى رأسك . وقديما قالوا وجع الرأس ولا ضياع الباروكة .

****

الناحية الاخلاقية

ولسوف تستمعين فى هذا الطابور الى نوعية من الشتائم التى يندى لها الجبين حتى اذا كان جبين كاتب هذه السطور ، لكن ليس بالطبع جبين المتزاحمات فى أول الطابور . فاعملى أذنا من طين واخرى من عجين ، ونرجو ان لاتحفظى تلك الشتائم بقصد استخدامها فى لحظاتك النضالية الخاصة .

وهناك حيث تقفين فى تلك المعمعة – والطابور يتحرك بسرعة السلحفاة – سوف تشعرين بغليان شديد فى دمائك من فرط الغيظ ، وقد يترجم ذلك الغليان الى دموع غزيرة تفيض من عينيك ، ولذلك نرجو أن لا تكونى قد طليت وجهك بأى نوع من المساحيق .

ولربما شعرت خلال تلك الازمة بانك تبغضين زوجك لانه لا يكسب من المال ما يسمح له بشراء اللحم من الجزار بالتليفون . بل ربما كرهت نفسك لانك تزوجت هذا الموظف الغلبان بدلا من المعلم طلبة الجزار الذى تقدم لك قبله ورفضته لان كرشه كبير ولانه يبصق على الباركيه ، غير قادرة على التنبؤ بما كان ينتظرك من الناحية الاقتصادية بعد عشر سنوات وستة أطفال .

كل هذه خواطر قد تساورك فى مثل هذه الظروف التعاونية الاستهلاكية ، غير انك يجب أن تستبعديها بسرعة حفاظا على

قداسة الزوجية ، وزوجك بالطبع معذور فى كونه على اد حاله حتى اذا كان يرفض أن يبطل السجاير . واذا كانت فى البلد أزمة فراخ فالغلطة ليست غلطته ، اذ انه بعد ثلاثين عاما من ضرب الرصاص والمدافع كان طبيعيا ان تطفش من المنطقة كل انواع الطيور بما فيها الفراخ . والفراخ التى عجزت عن الطفشان كان لزاما عليها لكيلا تموت جوعا أن تعمل جمعية !

نهاية المطاف

متى تصلين الى نهاية الطابور ! هذا شىء لا يمكننا للاسف ان نحدده وان كنا نعتقد ان ساعتين ونصفا مدة معقولة جدا . المهم ان لا تصلى الى البائع فيقول لك تلك العبارة الخالدة :

– الفراخ خلصت وتعالوا بكرة !

فلقد وقعت بسبب هذه العبارة اكثر من حالة انهيار عصبى يحتاج الى العلاج فى الخارج على نفقة الدولة ، والدولة كما تعلمين قلما ترسل أحدا على نفقتها الا اذا ثبت أنه غير محتاج لتلك النفقة . وقاك الله ياسيدتى من تلك العبارة الصاعقة واعادك سالمة لاولادك الستة الذين يجلسون فى هذه اللحظة فى المدرسة يحلمون بالفراخ ولا يسمعون شيئا مما يقوله المدرس . ما بلاش الواد السابع ده ، هه ؟

****

* طبق سلطة *

كواحد من هواة السلطة الخضراء ، اذكر كيف كنت منذ خمسة عشر عاما أتوجه الى الخضرى وأقول له :

– صباح الخير .

فيقول لى صباح النور ، اذ كان الناس فى ذلك الوقت يردون

السلام ولا يجرحوش احساسى . وأخرج من جيبى ورقة تحتوى على بنود السلطة واشرع فى تلاوتها على الرجل .

ـ شوف ياسيدى . أنا عاوز كيلو طماطم ، ونص كيلو خيار ، وخصايتين ، وشوية فلفل أخضر ، وجزر وبنجر وفجل وبقدونس ولمونتين .

فى دقيقة واحدة يجهز لى الرجل تلك المستلزمات ويضعها فى الحقيبة التى أحضرتها لهذا الغرض ، وأسأله عن الثمن فيقول لى انه ستة قروش .

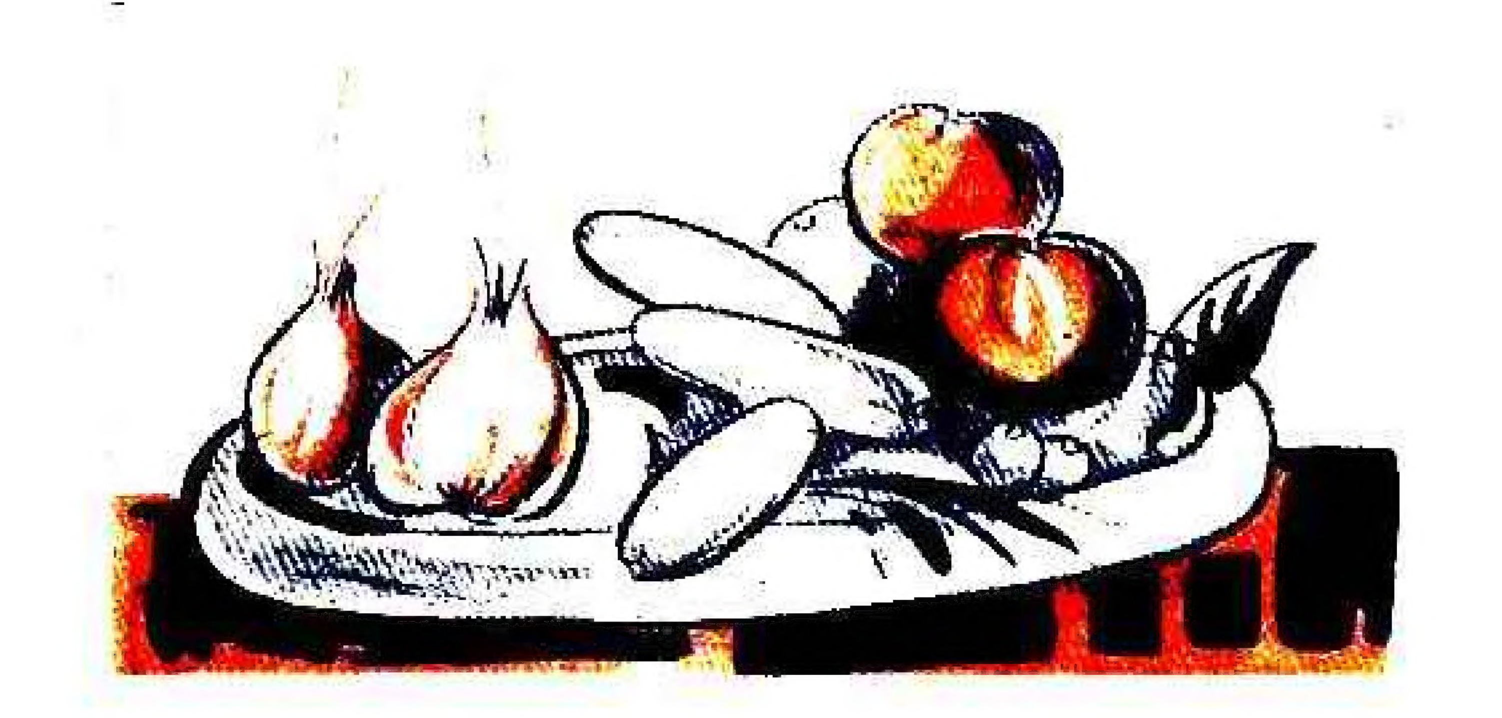
ـ ياراجل اتهاود شوية .

ـ خليهم شلن عشان خاطرك .

فاعطيه الشلن وأنصرف الى منزلى سعيدا منشرحا . وهذه القصة رويتها لبعض أصدقائى ممن هم أعرق منى فى دنيا الخضروات فسخروا منى بشدة وقالوا :

ـ انت يابنى شفت سلطة ؟ السلطة دى كانت على أيامنا احنا !

وكان فى لهجتهم نبرة من لهجة أبى لمعة الاصلى فظننت انهم يحتزمون الفشر ، لكننى تبينت أنهم جادون كل الجد . قال لى



نجيب محفوظ أنه كان فيما مضى يشترى كل هذه الاشياء بقرش صاغ لا غير ويعتبر نفسه مغلوبا . وقال لى الشاعر مأمون الشناوى أنه كان يشتريها بقرش تعريفة ، فى حين أكد الرسام رخا أنه كان يأخذها على البيعة . فلما سمعت هذا الكلام كدت الطم على وجهى ، لم يمنعنى من ذلك سوى خوفى على النظارة ، وأنت تعرف أسعار الشنابر هذه الايام .

اذ سولت لى نفسى المدمنة للسلطة أن أذهب الى الخضرى منذ يومين ، واقتربت منه قائلا :

ـ صباح الخير !

فزغر لى ولم يرد على ، بعد أن مضى الزمن الذى كان الناس فيه يردون السلام . وأخرجت الورقة اياها وتلوتها عليه ، راجيا منه أن يخبرنى بتكاليفها قبل أن يشرع فى الوزن . فراح يدمدم وهو يحسب الحسبة ، ثم قال بعد أن سعل وبصق غير بعيد من بنطلونى :

ـ ثلاثين قرش قوطة . خمستاشر خيار . ثمانية خصايتين . خمسة فلفل . أربعة جزر . أربعة بنجر . ثلاثة فجل . اتنين بقدونس . عشرة لمونتين !

فتضاربت فى دماغى أفكار كثيرة ، وكلمات مختلفة خطر لى أن أقولها له ، ولكنى وجدت أن أحسن كلمة أقولها هى :

ـ سلامو عليكم !

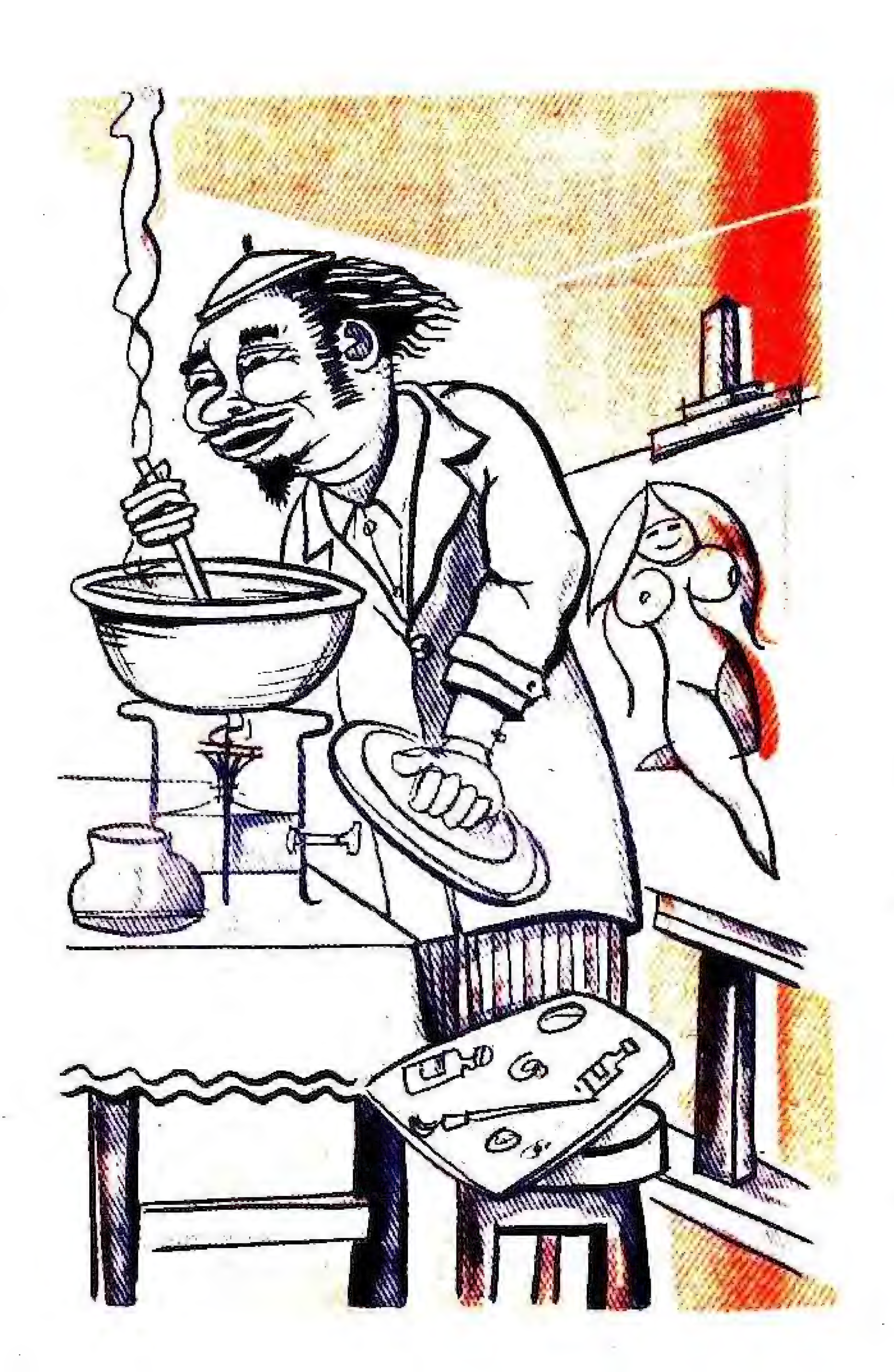
وهممت بالانصراف فاستوقفنى صائحا :

ـ انت ماشى من غير ما تدفع !

ـ أدفع ايه . أنا اشتريت حاجة !

ـ تدفع ثمن الوقت اللى ضيعته لى . على النعمة ماانت ماشى الا اما تدفع شلن !

فدفعت له الشلن الذى كنت فيما مضى أشترى به السلطة وعدت الى بيتى والحقيبة خاوية تنعى من حملها . ومتطلعا الى مستقبلى الغذائى أرى فيه أطباقا كثيرة معظمها اطباق فول ـ وليس بينها للاسف الشديد أى أثر لطبق السلطة !



* صورة غنائية *

صديق لى من الفنانين التشكيليين (١٢٠ كيلو) تواجدت عنده ساعة الافطار ، رأيت أمامه أنجرا عظيما من الفتة التي يتصاعد منها البخار شهى الرائحة ٠ فما أن ضرب المدفع حتى تناول الكبشةوراح يحول منها الى صحنه الخاص نصف محتويات الانجر على الأقل ٠ وبالملعقة حشى فمه بالفتة فامتلأت عيناه بالدموع نتيجة لشـدة السخونة ٠ وراح يتأمل الصحن حينا بعين الفنان الذواقة ثم قال :

ـ ناقصها لمسة لون أخضر ٠

وكان بجانب الانجر وعاء كبير يحتوى على الملوخية ، ملأ منـه الكبشة ورشها بيد الفنـان الحاذق على سطح الفتـة ٠ وذاق هذا الخليط فبدا أنه أعجبه ، وان كان اعجابا متحفظا ٠ وقال بعـد لحظة من التأمل :

ـ يلزمها كمان شوية أحمر !

وملأ ملعقته من وعاء الدمعة وراح ينقطها فوق السـطح الاخضر الذى يكسو صحن الفتة ٠ وذاقها مرة أخرى فأعجبته ، وان ظل اعجاب يشوبه قدر من الحذر ولحظة جديدة من التأمل وقال :

الالوان طلعت زاعقة شوية !

ومن سلطانية الزبادى غرف ملعقة طلى بها سطح المزيج سـالف الذكر ٠ أصبح المنظر مبهجا حقا ٠ وقال فى زهو :

ـ آدى التناغم ولا بلاش !

ثم راح يأكل ويأكل وأشك أنه كان يمضغ قبل أن يبلع ٠ ثم مد يده اليسرى نحوى وقال :

ـ قلعنى الساعة !

فصدعت بالأمر دون أن أسأل عن السبب ٠ وكان بجانب الانجر وعاء ملىء باللحم المسـلوق ، تناول منه هردومة هائلة ، وفى قول آخر هردوبة بالباء ، وهى ماسورة المظم المكسوة باللحم والدهن ٠ أمسكها بكلتا يديه مثلما تمسـك آلة الهارمونيكا ، وراح ينهش

اللحم والدهن حتى أصبحت العظمة عارية تماما . فقبض عليها بجماع يده اليمنى من ناحيتها المسدودة ، وشرع يدق بمعصمه الايمن على معصمه الايسر لكى ينزل فى الصحن ما حوته من نخاع . فأدركت لماذا طلب منى أن أخلع ساعته ، واذا عرف السبب بطل العجب .

وما هى الا دقائق حتى أصبحت الفتة واللحم نوعا من الذكريات فقلت له وأنا أرقبه :

ـ أنت موش قلت لى مرة ان عندك كولسترول مرتفع ؟

فقال فى حزم :

ـ أموت بالكولسترول وماموتش بالانيميا !

وضحك وشرق وسعل وواصل الأكل ، وذكرنى أن أمر عليه غدا حتى استوثق من أن الصورة المتناغمة لم تتسرب اليها ـ لا قدر الله ـ لمسة سوداء !

****

* الفصل الثانى *



فى الطريق ...

* جولة فى شارع الهــرم *

□□□□□□□□

احب رياضة المشى ، اذ أنها الرياضة التى أجمع الاطباء وعلماء الصحة على أنها أنسب الرياضات للرجل الذى جاوز الثلاثين من العمــر • (ملحوظة : هذه نكتة) •

هكذا أخرج كل صباح للمشى فى أقرب الشوارع الى بيتى وهو شارع الهرم ، حيث اكتشفت أن المشى قد أصبح يتضمن رياضة أخرى اضافية ــ زيادة الخير خيرين ــ هى رياضة القفز فوق ما يصادفنى فى الرصيف من بلاط مكسور ، مع شىء من حركات الباليه لزوم اضفاء لمسة الاناقة على تلك القفزات •

والسير فى شارع الهرم ليس رياضة فقط وانما ثقافة أيضا • السيارات ــ آلاف السيارات ــ تتدافع بجانبى فى الشارع كأنها تخوض سباقا دوليا ، وتطلق أبواقها بعصبية شديدة وبين حين وآخر تفرمل بعصبية أشد ، وواحدة منها تلبس فى فانوس نور ، متيحة لى فرصة دراسة الآثار المترتبة على ارتطام الصناعة الاجنبية متمثلة فى السيارة الاوروبية التى تهشم بوزها ، بالصناعة المحلية المتمثلة فى فانوس النور الذى مال بزاوية ٤٥ درجة ومزال مضيئاً مع أننا فى عز النهار •

وتصل الى أنفى رائحة غريبة أميز فيها رائحة الويسكى المغشوش فأعرف أننى اقتربت من أحد الكاباريهات • نعم اننى أعرف رائحة

الويسكى السليم ولكننى واثق من أن هذه رائحة ويسكى مغشوش • ومع الرائحة المتبقية من الليل أصــداء لبعض الاغانى المشخلعة ، تتردد حول صور النساء شبه العاريات المعلقة على سور الكاباريه ، الراقصات الفاتنات اللواتى يستلبن كل ليلة الباب ودنانير السـادة المخمورين بالويسكى المغشوش •

فأسرع الخطى لكى أجدنى بعد قليل أمر بمســجد فخم جليل تفوح منه رائحة الايمان ، فآخذ شهيقا عميقا لكى اغســل به عن صدرى ما شابه من الروائح سالفة الذكر • وتتجسد لى فكرة عن السماحة المصرية الاصيلة التى تبيح للرجل أن يفتح كابارية بالقرب من المسجد ، أو يبنى مسجدا بالقرب من الكاباريه ، ويعيش الرجلان فى حال من التآخى التام والوئام الجميل •

ويخطر لى ــ على سبيل التغيير ــ أن أعبر الى الناصية الأخرى من الشارع ولكننى اغير فكرى بسرعة • فعبور شارع الهرم وسط هذا السباق الدولى للسيارات لم يعد من الامور المأمونة ، ولطالما رأيت وأنا أتمشى رجلا أو طفلا راقدا على الارض وقد غطوه بجريدة اليوم • وأنا فى علاقتى بالجرائد أحب أن أقرأها وأن أكتب فيهــا لكننى أنفر بعض الشىء من فكرة أن أتغطى بها •

ثم كيف لى أن أعبر الشارع وهناك فى وسطه ذلك السور الذى يشبه سور برلين ، والذى حول شارع الهرم من شارع واحد الى شارعين منفصلين ؟ اننى يجب أن أمشى نحوا من كيــلو متر كامل قبل أن أعثر فى ذلك السور على فتحة تتيح لى أن أنفذ منهــا الى الجانب الآخر ، لاننى كرجل غلبان من المشاة لم أكن موجودا بتاتا فى ذهن الرجل الذى وضع تصميم هذا السور العجيب • فيارب (أتوجه الى المولى داعيا) احكم على هذا الرجل بعملية من نوع ما تجبره على أن يعبر شارع الهرم عشرين مرة فى يوم واحد •

وفوانيس النور مازالت مضاءة رغم أننا فى عز النهار ، نشيطة ملعلعة بعد أن شبعت من الرقاد طول الليل • وصــيحات عالية

لأطفال ، وأفواج من التلاميذ يتدفقون على الشارع من احدى المدارس الابتدائية وقد انتهت فترة الدراسة الصباحية . عشرات منهم ومئات كسحابة من الجراد تزحف في سماء المستقبل . ذهبوا الى المدرسة في الساعة الثامنة وخرجوا في الحادية عشرة وقد تعلموا كل شيء، مع رجاء أن يكونوا قد تعلموا ضمن ماتعلموه كيف يكتبون أسماءهم . وكثير منهم يتبادلون الضرب على الادمغة بشنط المدارس ، وتنقطع الشنط ويذهبون الى أبيهم مطالبين اياه بشنط جديدة . وهو يستأهل طبعا ، حد قال له يخلفهم ؟ .

ثم أسراب من بنات المدارس الاعدادية والثانوية ، يتضاحكن بأصوات مثل زقزقة العصافير ، وأبشر بيوم غير بعيد تضرب كل واحدة منهن في عشرة – تضرب بصيغة المبني للمجهول أو الحبيب المجهول ! وسحابة الجراد الزاحفة تتضاعف وتتكاثف وتوشك أن تحجب نور الشمس (*)

وبين هؤلاء البنات أكثر من بنت محجبة ، وهناك حقيقة لا أدرى اذا كانت البنات المحجبات يعرفنها أم لا . انني وغيرى من الرجال ننظر الى البنت العادية فنقول في أنفسنا هذه بنت ، فاذا نظرنا الى البنت المحجبة قلنا لانفسنا – لا شعوريا – هذه عورة مخبوءة ! واني لأجد صعوبة شديدة في فهم السبب الذى من أجله تصر هذه البنت أو تلك على أن تحول نفسها من بنت الى عورة .

وصندوق من الحديد على جانب الرصيف عرضه متر وارتفاعه متر ونصف المتر ، مفتوح عن آلاف الاسلاك الصفراء التى توحى بأنه صندوق لوصلات التليفون . ويؤيد ذلك أن هناك عاملا بالبدلة الصفراء يمسك سماعة تليفون ويجرى عن طريق هذه الاسلاك مكالمة تليفونية من نوع ما . وينتهى العامل من المكالمة فيعبث حينا بالاسلاك والصواميل ثم ينهض ليقفل باب الصندوق الحديدى ولكنه يرفض – الباب لا العامل – أن يقفل . يرفض بشدة فلا يقفل ، مرتين وثلاث مرات ، فيضغط عليه بشدة حتى « يلصمه » ويمضى وقد نسى عنه كل شيء . وهبة ريح مفاجئة تلفح الباب الحديدى فتفتحه ،

وآلاف الاسلاك اللطيفة الصفراء تلمع في الشمس أمام أفواج الجراد العابرة .

أريد أن أتجه الى الباب واقفله ولكننى اخشى أن أتهم بالعبث بأملاك الدولة ، فأواصل السير وانا احاول أن أترنم بلحن مطرب . لكننى لا أعثر في دماغى على أى لحن مطرب ، واللحن الوحيد الذى يواتينى هو « أيها الراقدون تحت التراب » من تلحين اللواء عبد الوهاب ! وانت ياصديقى مدعو لان تتمشى معى في شارع الهرم في اي وقت تشاء ، فهى كما رأيت ليست رياضة فحسب وانما ثقافة أيضا .

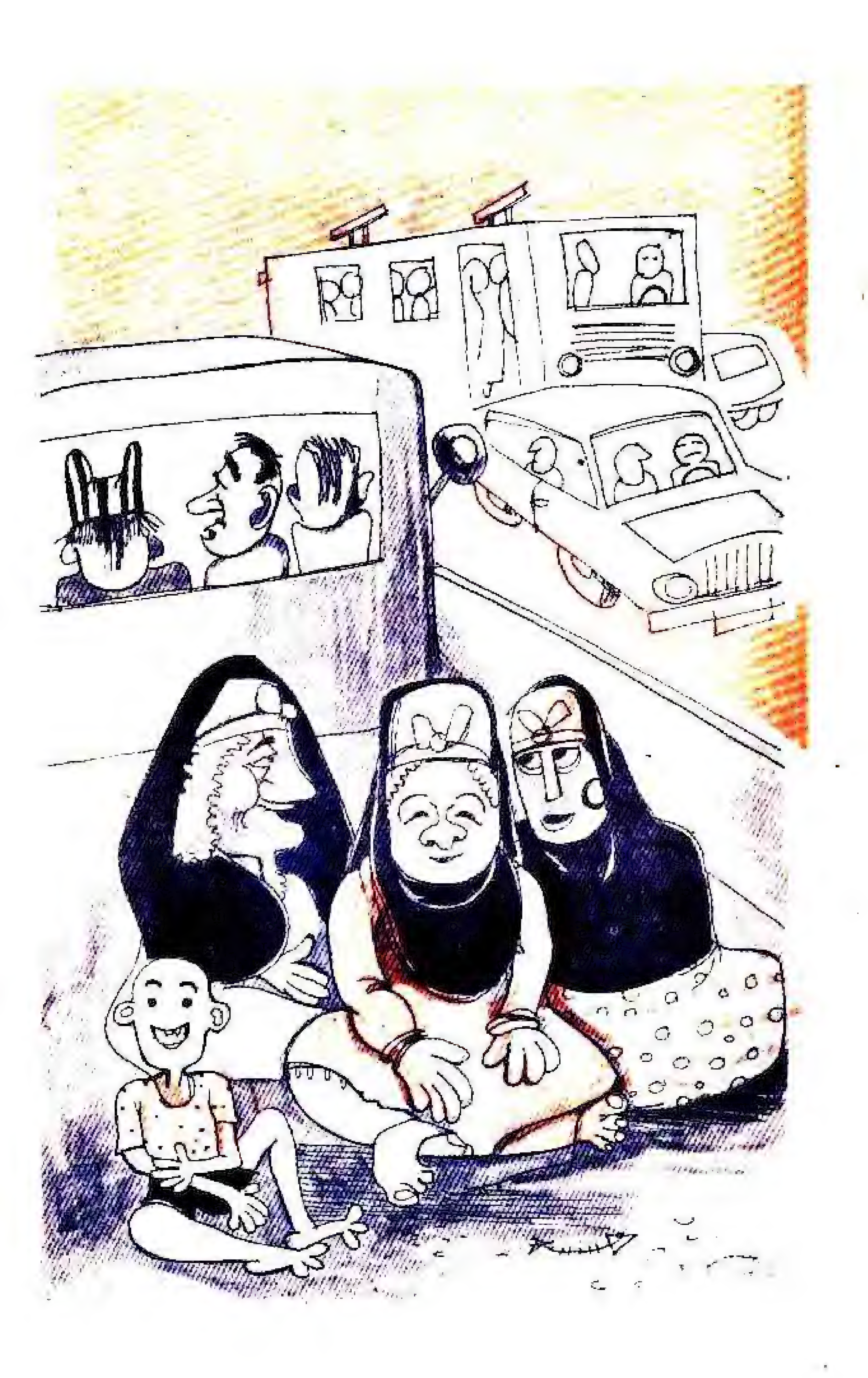
****

* من الهرم للجيزة يا قلب لا تحزن ! *

زمان كنت أنزل من بيتى في الهرم وأركب التاكسى فأصل الى وسط البلد في أقل من ربع ساعة . ثم زادت المدة الى نصف ساعة ، ثم الى ٤٥ دقيقة ، ثم الى الساعة ، ثم الى ساعة ونصف ساعة ، وأحيانا تصل الى ساعتين .. !

كان التاكسى يصل الى نفق الهرم فيتلكأ قليلا وراء السيارات المكدسة تحت النفق ثم يواصل سيره . أما اليوم فان حالة التلكؤ تبدأ من – حزر منين ؟ من عند الاوبرج وشرفك ، أى على بعد ثلاثة كيلو مترات من النفق ! وغالبا ما يتحول الامر من حالة تلكؤ الى حالة توقف تام ! فيسحب السائق جريدة الصباح ويشرع في قراءتها ، وقد يدير الراديو في نفس الوقت فيرتفع صوت شادية وهى تقول « سوق على مهلك سوق » !

هناك أجدنى ملطوعا وسط مئات السيارات من كافة الجنسيات الايطالية والفرنسية والالمانية والامريكية واليابانية ، الى جانب اللوارى ذات الاحجام والاشكال المختلفة ، بين لورى موديل ٧٨ كأنه فيل « الماموث » المنقرض ، ولورى فورد موديل ١٩٣٠ ، ذلك اللورى



الذى اشك كثيرا فى أنه يوجد فى أى عاصمة فى الدنيا سوى القاهرة، واللورى محمل بالرمل ، وفوق الرمل عامل تراحيل نائم · وهنا وهناك بين السيارات عربة كارو تحمل « علو » برسيم وعربة أخرى تحمل عشر نسوة نصفهن حوامل ونصفهن مرضعات ! وعربة رش تخر المياه منها بشدة وتغرق الشارع ، وجرار زراعى يبدو أن سائقه قد انتهز فرصة تزويغ المهندس وقرر أن ينزل به ـ الجرار لا المهندس ـ ليزور صديقا له فى الحسين ·

ثم تتحرك السيارات عدة أمتار لتقف ثانيا ، وتتحرك ثم تقف ، وتتحرك وتقف ، فلا تصل الى النفق الا بعد نصف ساعة تقريبا وهناك يسحب السائق قلما ويشرع فى حل الكلمات المتقاطعة ، وكلاكسات السيارات تتبادل بالطبع أقذع الشتائم ، كل سائق فى كل سيارة يلقى اللوم على السائق الذى أمامه ويريد ان يحرق أعصابه ويقتله غيظا · فاذا كان صحيحا ما يقولونه من أن الضجيج يضعف خصوبة الرجل فلست أدرى من أين تأتى كل هذه العيال· وفوق دماغى حيث أقف فى النفق أسمع صفيرا فخما خطيرا ، مقرونا بقعقعة وكركبة شديدة أفهم منها أن قطار الصعيد يمر فوق النفق ، وأتساءل ترى متى كانت آخر مرة تم فيها الكشف على سقف النفق للتأكد من صلاحيته لحمل هذا القطار الصعيدى الغليظ ؟

وذات مرة رفع السائق رأسه عن الجريدة وسرح ببصره الى مؤخرة اللورى الذى أمامه وكان مكتوبا عليها « الحلوة دى من السيدة » · ثم التفت نحوى وقال متسائلا عن احـــدى الكلمات المتقاطعة :

ـ تعرف يا بيه ايه أبطأ الكائنات حركة ؟

ـ السلحفاة ·

هكذا قلت له ثم أضفت :

ـ وده طبعا بعد العربية دى !

وانتظرت أن يضحك فلم يفعل ، وليس غريبا أن القيادة المستمرة

للسيارة تقضى فى الانسان على روح الفكاهة ، وذلك ان لم تقض على الانسان نفسه .

وتتحرك السيارات أمتارا لتقف ، وتتحرك لتقف ، حتى تصل بعد ربع ساعة الى ميدان الجيزة لتقف من جديد . وعلى الجانب الايمن من الميدان تقف عشر عربات ترولى ، لا بسبب الزحام تقف وانما لان الكهرباء مقطوعة عنها ، أغرب منظر لاغرب قافلة من الكائنات الميتة . لكنها والحمد لله مليئة بالاحياء الذين يطمعون فى عودة الكهرباء بسرعة ، حتى لا يضطروا الى قطع تذكرة جديدة فى مواصلة اخرى . أحياء كثيرون يتنفسون ، بعضهم يتنفس فى وجه الآخر وبعضهم فى قفاه . حالة من التلاحم البشرى الفذ ، سخيف منك أن تشبهه بعلبة السردين ، ففى علبة السردين كما تعلم يوجد بين السردينة والاخرى شىء من الزيت . فقل انه باكو عجوة مكبوس، ليس فيه عنصر التلاحم فحسب ، وانما عنصر التفاعل أيضا .

وذات مرة رفع السائق رأسه عن الجريدة وسرح ببصره الى مؤخرة اللورى الذى يقف امامه وكان مكتوبا عليها « حاسب على والنبى » ! ثم التفت نحوى وقال متسائلا :

ــ تعرف يا بيه عاصمة عربية تحدث فيها انفجار سكانى ؟

فتفكرت فى الامر ثم قلت له :

العداد عمل كام ؟

قال : عشرين قرشا ..

فأعطيته ربع جنيه ونزلت بسرعة ، اذ أنه مع مثل هذا السائق لا يمكن أن يعرف ماذا يمكن أن يحدث لك عندما تفتح الاشارة ويجد نفسه فى طريق غير مسدود ، اذا افترضنا أن هذا الطريق موجود !

****

❁ الخارج مفقود ! ❁

لا أدرى لماذا دعتنى نفسى الى أن أزور الخواجة ينى الذى يقيم على مسافة عشر دقائق من البيت ، وربما كان ذلك بسبب ضعف عندى نحو الحضارة الاغريقية . ورأتنى ربة البيت خارجا فقالت :

ــ هات لنا معاك لمونتين وانت راجع .

فقلت لها وأنا أرفع حاجب التصحيح الايسر : ماتقوليش وانت راجع . خليكى دقيقة وقولى « اذا » رجعت .

وذلك تذكيرا منى لها بأننا فى الزمن الذى لم يعد رجوع الرجل فيه الى البيت أمرا مضمونا ، وان الانسان لكى يكون واقعيا يجب عليه أن يعترف بالحكمة القائلة بأنه اذا كان الخارج مفقودا فان الراجع مولود .

فى الشـــــارع سرت ، وثلاث مرات فى ثلاث ثوان ، فى حفر الرصيف تكعبلت . ثم كان على أن أسير فى نصف دائرة طويلة لكى اتفادى الخوض فى بركة مياه لم يهمنى أن أكتشف أن كانت من طفح المجارى أو من ماسورة مكسورة ، مادامت فى النهاية منبثقة من واقعنا .

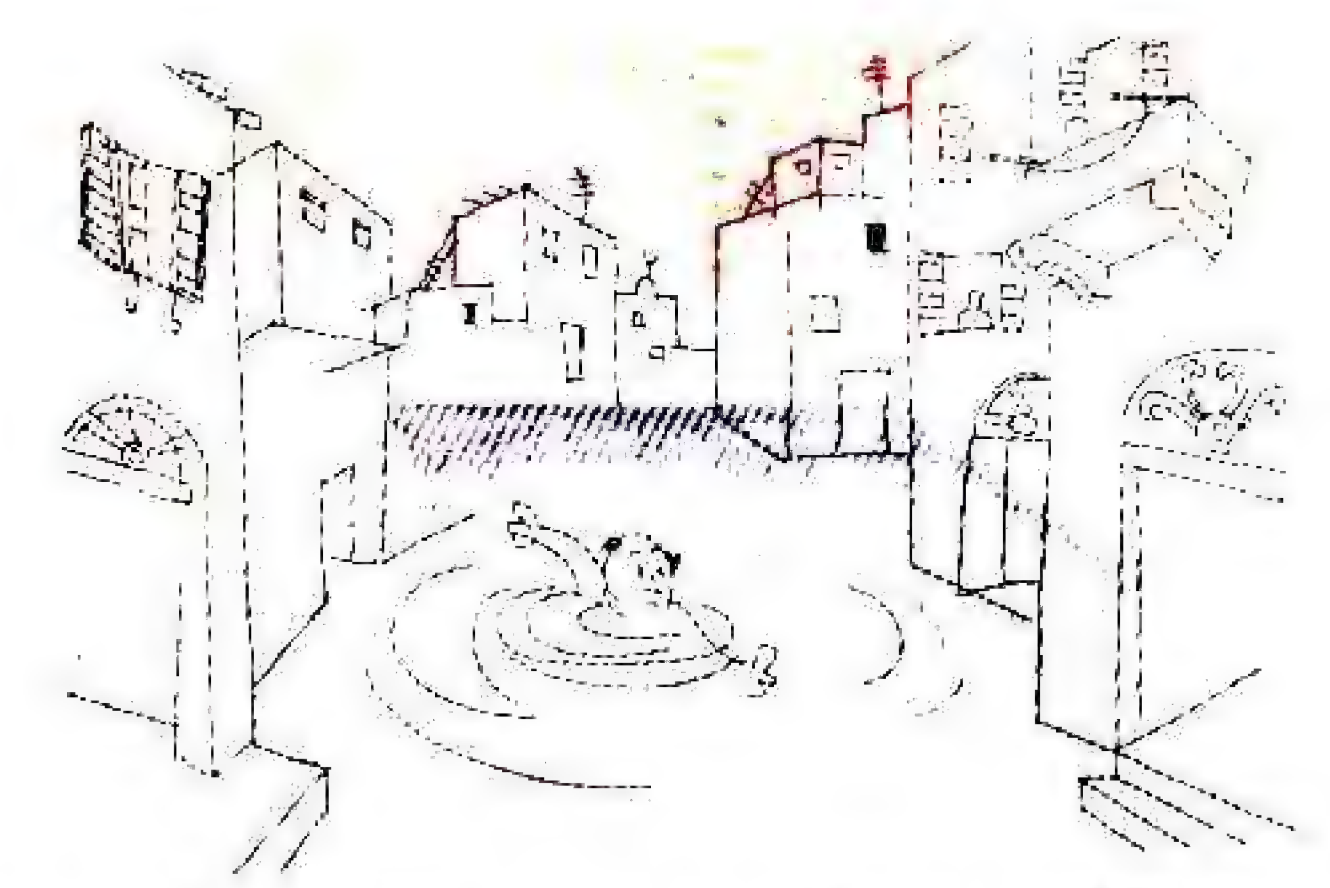
وفى نهاية البحيرة قابلنى رجل ممدود اليد يقول :

ــ حسنة لله يا بيه ربنا يطول عمرك .

وبالرغم من أنه لم تكن عندى أية رغبة فى طول العمر ، فقد وضعت يدى فى جيبى واخرجت منه قرش تعريفة ، قدمته له فنظر اليه بازدراء ثم رده الى قائلا :

ــ ايه هو الى قرش تعريفة .. احنا بنشحت ولا ايه ؟

وعلى الناصية التالية رأيت منظرا جعلنى أشعر بالاسف الشديد لاننى لا احمل معى آلة تصـــــوير . فهو منظر لو التقطت صورته ونشرتها فى الجريدة لكانت من أندر صور الموسم .. منظر خمس سيدات ناضجات يقفن على محطة الاتوبيس وليس بينهن ــ صدق أو لا تصدق ــ امرأة واحدة حامل !



ومررت بعربة ليمون ، وقبل أن أمد يدى الى الليمون صاح البائع قائلا :

– اللمونة بشلن !

قلت له بغيظ :

– أنا سالتك يا جدع انت ؟

ودفعت له نصف الريال ووضعت الليمونتين فى جيبى وانصرفت، لكننى سرعان ما عدت اليه ثانيا . تذكرت أننى يجب أن أشترى ليمونة ثالثة .. فهل يصح أن أدخل على الخـواجة ينى وايدى فاضية ؟

ووصلت الى بيت الخواجة وضربت الجـرس فلم يرن بسبب انقطاع الكهرباء فى أغلب الظن . فطرقت الباب حتى انفتح عن خواجاية عجوز عمشاء ، بربشت نحوى بتساؤل فقلت لها :

– مسيو ينى موجود ؟

فقالت :

– مسيو ينى فى اليونان علشان أخوه .

قلت لها فى دهشة !

– لكن أنا أعرف أن أخوه فى استراليا .

– علشان كده هو سافر اليونان .

– الواحد لما يكون أخوه فى استراليا .. يسافر اليونان ؟

– أيوه يا خبيبى .. سافر اليونان علشـان يضرب واحـد تليفون لاستراليا .

وأغلقت الباب فى وجهى فنزلت وأنا أعبث فى بلاهة بالليمونتين فى جيبى .

وفى طريق العودة مررت بسـيارة لورى قد تحطم بوزها على قاعدة عمود نور وغير بعيد منها سـيارة ملاكى محطمة مدشدشة تقف صامتة وسط بحيرة لامعـة من بودرة الزجـاج وعلى الارض جريدة فيها مانشيت كبير عن قرب حـل أزمة المرور ، والجريدة كما تبينت بعد لحظة مفروشة فوق جثمان رجل مدهوس غير أننا فى النهاية ـ بدليل كتابتى لهذه السطور ـ عدت الى بيتى سالما .. الاقى معاك قرص اسبرين ؟

****

❋ وشر البلية ما يضحك ! ❋

حاولت كثيرا أن أحب شارع صلاح سـالم ولم أنجح ، بسبب ما تثيره بعض معالمه فى نفسى من ذكريات مضحكة فى بعض الاحيان الى درجة البكاء ، ومبكية فى أحيان أخرى الى درجة الضحك !

لكى أصل الى ذلك الشارع من حيث أقيم فى الهرم يجب أن أعبر ذلك الكوبرى الذى كان يسمى بكوبرى الملك الصالح . الملك المذكور هو الملك فاروق ، الذى كان ـ كمـا قـرأت فى أكثر من كتاب ـ لا يترك مائدة القمار الا نادرا ، أى فى الاوقات التى يكون مشغولا فيها بحل البرلمان أو اقالة الوزارة وما الى ذلك من هوايات جلالته . فاذا ترك مائدة القمار فذلك لكى يختلى بهذه الغانية أو تلك ، وكأس الويسكى موضوعة طوال الوقت فى متناول يده الكريمة ، سواء على المائدة الخضراء أو على الكومودينو !

وفى ذات يوم طلعت علينا الصحف بصورة لجلالته وقد تدلت من وجهه لحية عظيمة ، كما تدلت من يده مسبحة فاخرة ، وفى



وجهه الاحمر المنتفخ شاعت سيماء الورع والتقوى ! وقيل لنا ان جلالته قد قرر أن يتفرغ للصلاة والصيام والتعبد والتهجد ، ومن ثم كان لزاما علينا أن نذكره دائما باسم الملك الصالح ، تقريرا لواقعه الجديد وتمييزا له عن الملوك الآخرين غير الصالحين ، الذين يلعبون القمار ويشربون الخمر ويقدمونها فى بعض الاحيان للبنات الساذجات على أنها مية صفرة !

ولم يكن هذا كافيا فى شرع أساطين الدجل والنفاق ، فانبرى منهم من يقول انه قد ثبت له بالدليل القاطع المستند الى الوثائق التاريخية المؤكدة أن صاحب الجلالة الصالح ينحدر من سلالة النبى عليه الصلاة والسلام !

ضحكنا ـ نحن شعب مصر ـ كثيرا فى تلك الايام ، وبكينا أيضا فى الوقت نفسه . أفليس من المحزن أن نرى ـ وسط القمم الكثيرة للعبقريات المصرية ـ تلك القمة الشامخة لعبقرية النفاق الذى كان منتشرا فى تلك الايام ؟!

هذه واحدة من الذكريات التى تزعجنى دائما ، كلما كتب على أن أذهب الى شارع صلاح سالم . ثم يأتى الدور فى الازعاج على القلعة ، اذ أننى لم أنجح قط فى أن أحب القلاع . فالقلعة ـ أية قلعة ـ هى الرمز المجسم لفشل الحضارة ولانفصام شخصية

الانسان ، بذلك التناقض الصارخ بين عبقرية العقل البشرى فى فن الهندسة والمعمار ، وبين قبوله للسفالات والبشاعات والحقارات التى تدور وراء جدران المعمار الجميل !

من هذه القلعة راحت المدافع الفرنسية ذات يوم تصب بلاويها بدون تمييز على شعب مصر ، وهى الواقعة التى وصفها المؤرخ الجبرتى بقوله « فلما نزل عليهم القنبر ـ أى القنابل ـ ولم يكونوا عاينوه من قبل ، قالوا ياسلام من هذه الآلام ، يا خفى الالطاف نجنا مما نخاف » . فالقلعة كما ترى كانت وسيلة لاذلال الشعب المصرى ، ورحم الله الجبرتى الذى أراد أن يثبت أن الشعب المصرى لا يستطيع أن ينسى عادة السجع في الكلام حتى وهو يموت !

ورحل نابليون وأتباعه وحل فى القلعة ساكن جديد . وفى ذات يوم لبس بكوات المماليك أفخر ثيابهم وتوجهوا الى القلعة لحضور الوليمة التى أقامها لهم ذلك الساكن ، الباشا محمد على . فبينما هم يأكلون فوجئوا بالرصاص ينهال عليهم من كل اركان القلعة ، فطب هذا ميتا وفى يده ورك فرخة ، وطب ذاك وفى يده زند خروف ! هى طريقة سافلة بالطبع لاستئصال ذلك السرطان المملوكى، ولكن التاريخ سوف يذكر للباشا أنه لم يقتلهم الا بعد أن ملأوا بطونهم بأطايب الطعام ! فالقلعة كما ترى لا تثير فى ذهنى الا أوسخ الذكريات ، هناك حيث أسير فى شارع صلاح سالم .

وما أن أترك القلعة حتى أجدنى والعياذ بالله وسط مدينة الموتى ، حيث القبور والقبور والقبور على مدى الشوف ، والقباب والقباب والقبـاب ، ولون أصفر كالح كئيب ممتد الى الافق يؤذى عينى ويؤذى أنفى بما أوشك أن أشمه فيه من رائحة العظام المتيبسة والاجسام المتحللة ! أقول لنفسى ـ لكي أطمئنها ـ ان معظم هذه القبور مسكونة فى هذه الايام بالاحيـاء ، ولكن الفكرة تزيدنى اكتئابا ، اذ لم أكن فى أى يوم من الايام من أنصار اختلاط الجنسين ـ الاحياء والاموات !

وبعد فهذه بعض المعالم التى ذكرتها لك على سبيل المثال لا الحصر ، والتى تثير فى نفسى من الذكريات ما يزعجنى وينكد على ويسمم بدنى ، هناك حيث أسير فى شارع صلاح سالم !

****

* فى طابور الثقافة *

وصلت الى معرض الكتاب فى يومه الاخير لكى أجد عددا من الطوابير الطويلة أمام شبابيك التذاكر ، فوقفت فى آخر واحد منها سعيدا بما أرى من أن الشعب المصرى قد بدأ يقف فى طوابير الثقافة بنفس الحماسة التى يقف بها فى طوابير الزيت والسكر والفراخ ! نعم لاشك أنه مما يثلج الصدر أن يرى الانسان حوله كل هذا العدد من المثقفين أو طالبى الثقافة .

غير أن الثقافة فيما يبدو ـ وان كان فى امكانها تغيير العقل وتطويره ـ لا تستطيع أن تغير العادات السيئة بنفس السهولة . اذ مر على نصف ساعة وأنا أتحرك ببطء مع الطابور حتى اصبحت على بعد خطوات من شباك التذاكر ، واذا بشاب مثقف أو طالب ثقافة يقترب منى وهو يبتسم ويقول فى أدب زائف :

ـ ممكن والله تقطع لى تذكرة معاك ؟

فتفكرت فى الامر حينا ، توطئة لان أساله فى برود : ـ ليه ؟

فارتبك لحظة ثم قال : ـ أصل ده آخر يوم فى المعرض !

فقلت له وأنا أرفع حاجب السخرية الايسر :

ـ ماهو برضه آخر يوم بالنسبة لى !

فافحم وابتعد عنى ليبحث عن فريسة أخرى .

فهذه عادة مصرية سيئة لم تنجح الثقافة فى أن تخلص هذا الشاب منها ،عادة الحداقة والفهلوة ومحاولة احراج الآخرين لسرقة ما بذلوه من جهد ووقت .



ونظرت الى الطابور الموازى لطابورى فلاحظت أن فيه شيئا غريبا وغير طبيعى . وبشىء من امعان النظر أدركت ما هو ذلك الشىء ، وهو أنه طابور حريمى ليس فيه رجل واحد ! وهذه عادة جديدة لم تنجح ثقافتنا فى محوها عنا ، عادة المباعدة على قدر الامكان بين الجنسين ، وافتراض سوء النية فى كافة الذكور مهما كانت ثقافتهم ! صحيح أن هذا الفصل موجود فى طابور الجمعية ، ولكننى أعتقد أن هناك فرقا كبيرا بين من يقف فى الطابور ليشترى مرجعا علميا ، ومن يقف فيه ليشترى فرخة ! وعلى أى حال فالمسئول عن هذا الوضع هم الاناث الواقفات فى الطابور المنفصل ، المثقفات المصريات اللواتى اخترن مواصلة الحياة فى عصر الحريم !

وشىء آخر غريب لاحظته فى ذلك الطابور ، وهو أنه لاتوجد فيه ـ على عكس كافة التجمعات الحريمى ـ أية امرأة حامل ! وزال استغرابى عندما تذكرت أن الحوامل لايملن الى الحياة الراسية فى الطوابير بقدر ما يملن الى الحياة الافقية فى البيت ، وان لهن ثقافتهن الخاصة التى لاعلاقة لها بثقافة الكتب . كما أن معظم الواقفات فى الطابور من طالبات العلم اللاتى لم يتزوجن بعد .. مثقفات اليوم حوامل الغد باذن الله !

وليس معنى هذا بالطبع أن المعرض كان خاليا من العيال ـ استغفر الله وحاشا لله ! فلقد كان « يشغى » بآلاف منهم مثل أى

مكان فى مصر ، وليس غريبا أن يؤموا المعـــرض وقد خصصت ادارته ـ مشكورة ـ سرايا كاملة لكتب الاطفال والعابهم ٠ آلاف منهم يجرون ويقفزون ويصرخون كالعفاريت ، ويأكلون الجـلاس ويشربون الكازوزة ، وليأخذوا لهم يومين قبل أن يكبروا ويحلوا محل آبائهم فى طابور الجمعية !

واذا كنت توافق على أننى مثقف ، واذا كنت قد لاحظت أننى قد أجلت زيارتى للمعرض الى اليوم الاخير ، فهــذه عادة سيئة أخرى فى شعبنا الكريم ، عادة تأجيل الاعمال الى آخر لحظة ! آلاف غيرى قد حضروا حتى لاتفوتهم الفرصة فى اليوم الاخير للمعرض ، يتزاحمون فى الممرات الضيقة ويتصادمون ، ولا أحد منهم ينجح فى شراء ما يريد الا بما سلف ذكره من عادة الحداقة والفهلوة ٠ وقد اطلق فرويد ـ مؤسس التحليل النفسى ـ اسما خاصا على عادة تأخير الاعمال لآخر لحظة . ويؤسفنى أننى لا أستطيع أن اذكره لك بسبب عادة سيئة أخرى عندنا وهى نفورنا من تسمية الاشياء بأسمائها !

ودخلت احدى السرايات وسرت مترين فأحسست أننى أفتقد شيئا هاما جدا لازما لصحتى ، واكتشفت لما وجدتنى أختنق أن هذا الشيء هو عنصر الاوكسجين ! ووسط هذه المئات من الاجسام المثقفة لا اشك فى أن رجلا ما قد اختنق ومات وهو يقلب فى كتاب عن علم التهوية ! فخرجت بسرعة وأنا اقول لنفسى أن جاهلا حيا خير مائة مرة من مثقف مختنق !

ومن بعيد رأيت الطوابير خـارج باب المعرض تطول وتطول ، وأدركت أنه ما أن تمر ساعة حتى أجد نفسى فى حشر ثقافى شديد لا قبل لى باحتماله ، فأخذت بعضى وعدت الى بيتى وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا ! ٠٠ ومع ذلك فربما نكون قد أخذنا فكرة لا بأس بها عن عجز الثقافة عن محو تراث الاجيال عن العادات غير المثقفة!

* الفصـــل الثالث *



كل شئ بثمنه ...

* المسألة السيفونية *

مثلما يحدث للتليفزيون والتليفون وغيرهما ، أصيب سيفون الحمام عندنا بحالة من العطل الفنى تستلزم استدعاء السيد السباك . فالحمد لله أن لى صديقا يعرف رجلا آخر يعرف سباكا طيب القلب يرضى بأن ينتقل الى منزلى بذات نفسه بدلا من أن اذهب أنا الى ورشته والسيفون على ظهرى ـ منظر موش قوى ، هه ؟

وأتى السباك ـ وهذا غريب ـ فى الموعد الذى حددوه لى ، ونظر الى السيفون فى استعلاء وقال :

ـ السيفون ده ماركة ايه ؟

فقلت له لكى أشيع فى الحمام جوا من المرح :

ـ صوت سيده !

وضحكت أنا ولكنه لم يضحك . وفتح السيفون فوجده خاليا من الماء فقال :

ـ هو مافيهش ميه ليه ؟

فقلت له عاتبا ومعتذرا :

ـ لو الميه بتقعد فيه كنت ح أزعج سيادتك ليه ؟

وأضفت بسرعة :

ـ سيادتك تشرب قهوة ولا شاى ؟

فتفكر لحظة وقال :

ـ مافيش جنزبيل ولا سحلب ؟

فاعتذرت له عن عدم توافر هذه الالوان من الرفاهية فى بيتنا المتواضع ، فقال انه لا بأس بالشاى مع قطعة من الكيك أو الكرواسان . وفى انتظار الشاى فتح حقيبة خشبية تشبه السامسونايت ، وأخرج منها كماشة وزرادية ومفتاحا انجليزيا وخمسة أنواع من المفكات . ومن فوره بدأ « يفور » السيفون ، أى يفكه قطعة قطعة ، هذه ماسورة وهذا قضيب حديدى ، وهذه صامولة ، وهذا مسمار ، وعشرات من الاشياء الغريبة التى لم يخطر ببالى قط أنها موجودة فى جوف ذلك الكائن الصينى الابيض ذى المنظر البرىء .

فبدأ الفار يلعب فى عبى وقلت له :

ـ ح يتكلف كام كده يا ترى تصليح السيفون ؟

فنظر الى باستنكار وقال :

ـ أنا لسه كملت كشف ؟

ـ آسف .

وعزمت عليه بسيجارة سوبر فقال فى كبرياء :

ـ شكرا .. باشرب أجنبى .

وأخرج من جيبه علبة سجائر أجنبية يبدو من منظرها أنها حقا سلسة . فأخرجت انا علبة كبريت لكى أشعلها له فسبقنى بأن أخرج من جيبه ولاعة الكترونية . وأتى الشاى فراح يشربه وسط اعتذاراتى من عدم تواجد الكيك أو الكرواسان .

وفجاة قال لى فى شكل سؤال عابر :

ـ هو البيت ده ملك ولا ايجار ؟

فدهشت من السؤال ، ثم اغتظت وقلت له :

ـ هو سيادتك سباك ولا مأمور ضرائب ؟

فاجاب وهو يواصل استخراج أحشاء السيفون :

ـ بس يعنى آخد فكرة ..

فقلت بسرعة :

ـ ايجار ومتأخر على ستة أشهر !

فلم يعلق ، ونزع القطعة الاخيرة من السيفون وألقى بها وسط عشرات القطع التى تناثرت على أرض الحمام ، أشبه شىء بمخلفات معركة حربية غير متكافئة . ثم سحب نفسا عميقا من سيجارته السلسة ونفخه فى وجهى وهو يقول :

ـ أنا باخدمك علشان خاطر الحاج عطية .

الحاج عطية هو الرجل الثانى الذى يعرفه الرجل الاول الذى يعرفه صديقى ، وأضاف السباك وهو يرمقنى بابتسامة حرفية مصقولة :

ـ أنا دايما باخد عشرة ، لكن علشان خاطرك ح آخد تمانية بس.

فقلت له فى بلاهة تخالطها لمسة ذعر :

ـ تمانية ايه ؟

ـ تمانية جنيه طبعا .

فادركت أن الفاس قد وقعت فى الراس ، اذ نظرت الى عشرات القطع المبعثرة على أرض الحمام ، وتخيلت نفسى وأنا أحاول اعادة تركيبها ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم ، وذلك بالطبع بعد أن آخذ دبلوم صنايع .

قلت له بالذلة المناسبة :

ـ طب خليهم سبعة !

فتفكر حينا ثم قال وهو يمد نحوى يدا آمرة :

ـ زى بعضه علشان خاطر الحاج عطية .

وخطف الجنيهات السبعة من يدى المرتعدة ودسها فى جيبه . وعاود تركيب الاجزاء المفكوكة فى السيفون الذى أصبح ـ بعد ربع ساعة لاغير ـ سيفونا صالحا للعمل .

كان هذا الكلام منذ عدة أيام ، واليوم حاولت تشغيل السيفون فوجدت أنه قد عاد الى حالته اللا سيفونية السابقة .

فأكون شاكرا لو أرشدنى أحدكم الى سباك آخر ، بس وحياة والدك موش عن طريق الحاج عطية !

✽ الناس والماشية ✽

ذات يوم بعيد لا يدركه الجيل الصاعد كان اللحم يباع بالاقة ، التى هى أكبر من الكيلو بشوية . وكانت الاقة تباع بقروش معدودة عندما كان الجنيه الذهب يساوى ٩٧ قرشا مصريا ـ وهو الذى يساوى اليوم أكثر من مائة جنيه مصرى !

ثم خطر لرجل المانى اسمه أدولف هتلر ، بينما هو يسبسب على جبينه الآرى الابيض خصلة من شعره النازى الاسود ، أن يثبت للعالم أن المانيا فوق الجميع . فاشتعلت الحرب العالمية الثانية التى انتهت بأن وجدت المانيا نفسها ـ لفترة ما ـ تحت الجميع ! وكانت تلك الحرب سببا فى ارتفاع كافة الاسعار بما فى ذلك سعر اللحم .

ثم حدث لنا هنا أن قررنا الغاء التعامل بالاقة وبدء التعامل بالكيلو ، وذلك لاسباب كثيرة ربما كان من بينها أننا كنا نريد أن نلقى باسرائيل فى البحر . فاخذ سعر الكيلو يرتفع عاما بعد عام حتى خرج من مرحلة القروش الى مرحلة الجنيهات . وفى هذا الشهر بالذات ارتفع سعر اللحم مرتين ، مرة عشرين قرشا ومرة ثلاثين قرشا ، وبقدرة قادر أصبح سعر كيلو البتلو ثلاثة جنيهات تقريبا ! فتحول اللحم بالنسبة لى من شىء لذيذ آكله الى اهانة شديدة لكرامتى ، وأصبحت كل قطعة لحمة آكلها أشبه بصفعة شديدة على قفاى !

نعم ان الجمعيات التعاونية ـ مشكورة طبعا ـ تبيع كيلو الكندوز بأقل من جنيه ، ولكنك بالطبع لا تتوقع منى أبدا أن أقف فى طابور الجمعية بالساعتين وخاصة فى هذا البرد الشديد . فليس أمامى سوى أن أتعامل مع صاحب الجلالة الجزار ، الذى قلما يحدد لى سعر الكيلو الا وفى يده سكينة حامية وفى الاخرى ساطور تقطر منه الدماء !

فقالت لى نفسى . ساخرة كعادتها !



ـ وناوى تعمل ايه ان شاء الله ؟

فقلت لها وأنا أرفع حاجب الكبرياء الايسر :

ـ ناوى أبطل اللحمة !

فقد كنت دائما من ذلك النوع الذى يفضل أن يجوع على ان يصفع على قفاه ، وأرجو أن تكون مثلى . فلمــاذا نتحمل هذه الاهانة اليومية ، ولماذا نسمح لانفسنا بأن نفلس ونستدين ، فى سبيل أن تتدفق الملايين فى جيوب الجزارين وتجار الماشية ؟

فقالت لى نفسى مواصلة سخريتها :

ـ ح تاكل ايه بدل اللحم ؟ فأجبتها بنفس الكبرياء :

ـ ح آكل فراخ أحيانا ، وبلوبيف أحيانا ، وفول دائما !

وهذه دعوة منى اليك يا سيدى رب الاسرة ، ويا سيدتى ربة البيت ، الى أن نأكل الفول ونحن بكرامتنا ، بدلا من أن نأكل اللحم ونحن نصفع على قفانا !

ان الفول غنى بالبروتين مثل اللحم تقريبا ، فاذا أنت اضفت اليه بيضة مسلوقة أو مقلية فانت تحصل على كل من البروتين النباتى والحيوانى .

فقالت لى نفسى الامارة بالسوء .

ـ ح تقدر تأكل فول كل يوم ؟

فشرحت لها كيف أن الفول نبات ذو امكانيات لا متناهية ، وانه ليس مجرد صحن الفول بالزيت الذى نفطر به كل صباح . فهناك فول بالسمن ، وهناك فول بالتقلية ، وهناك فول بالبيض ، وهناك فول بصلصلة الطماطم ، بل اننى عرفت ذات يوم رجلا يأكل الفول بالقشطة ! فانت ـ بشىء من التفنن من جانب السيدة زوجتك ـ تستطيع أن تأكل الفول كل يوم بدون أن تشعر انك تأكل نفس الصنف ، وبدون أن تشعر بأية صفعة على القفا !

وهناك الى جانب الفول صحن العدس ، الذى قد تأكله مطبوخا او تشربه فى شكل شوربة . وفى الشوربة يمكنك أن تخرط بصلة وتنثر شيئا من الكمون ، أو تخلط بها مزيجـــــا من الخضراوات المهروسة . وأنت يا سيدتى ربة البيت تعرفين أكثر منى فى هذه

الشئون ، صدقينى انها الذ بكثير من شغل التريكو ! وهذا بالطبع ما لم تكونى تستمتعين بصوت رنين الايدى الغليظة للجزارين وتجار الماشية على قفا زوجك التعس !

فلنحاول أن نثبت للجزارين وتجار الماشية أننا لسنا جزءا من بضاعتهم !

****

✱ بيض بالبسطرمة ! ✱

قالت لى نفسى الامارة بالسوء :

ـ ايه رأيك فى أكلة بيض بالبسطرمة ..

فاستنكرت الفكرة أول الامر ، لاسباب صحية وجمالية واقتصادية .. ثم بدأت اشعر برائحة نفاذة للاكلة المذكورة تغزو نفاشيشى ، فبدأت افكر فى الامر .

وقبل أن أطلعك على ما انتهى اليه تفكيرى اخطرك بأننى لست أكولا أو اكيلا ، بدليل أن وزنى لايزيد على ٥٦ كيلو الا نادرا ، وهو الوزن الذى حافظت عليه منذ كان عمرى ١٥ سنة ، أى منذ أكثر من عشرين سنة بقليل ، وهذا القليل اترك تقديره لحداقتك. غير اننى فى بعض الاحيان تصيبنى فجعة مفاجئة واشعر بأننى يجب أن آكل أى شىء حتى اذا ــ أو لاسيما اذا ــ كان أكلة غير محترمة . وقد سألت صديقا لى من الاطباء عن تفسير لهذه الظاهرة فقال :

ـ أعمل تحليل سكر ..

فشكرته ولم أعمل التحليل بالطبع ، فماذا افعل اذا تبين من التحليل اننى مصاب بالسكر فعلا ؟ سوف تنقلب حياتى رأسا على عقب ، واعيش حبيسا فى سجن الريجيم القاسى ، هذا ممنوع وهذا مسموح به ، وهذا دح وذلك كخ ، وأرجع والعياذ بالله لايام تربية الطفولة .



ونترك هذه الفذلكة الطبية الهامشية ونعود لحكاية البيض بالبسطرمة ، اذ ذهبت ــ منقادا وراء الرائحة النفاذة ــ الى البقال وقلت له :

ـ ادينى بيضة .

فقالت لى نفسى وهى تنخزنى بين اضلاعى :

ـ اختشى على دمك واطلب بيضتين !

فذكرتها بأن البيضة بسبعة قروش ، فقالت ولو . وازاء النظرة الساخرة التى ارتسمت فى عين البقال ، قلت له متنهدا :

ـ خليهم بيضتين ، وكمان تمن بسطرمة .

ـ عيب عليك ، أطلب ربع موش تمن ..

هكذا قالت لى نفسى لا البقال طبعا ، ولكننى قلت لها فى حزم : انكتمى يا بت ! فانكتمت وراحت تلهث فى غيظ بينما يقوم البقال بتحضير المطلوب . فلما انتهى من الامر أخرجت ورقة بخمسين قرشا وقدمتها له بالالاطة المناسبة ، ووقفت انتظر منه الباقى . وهو بدوره وقف صامتا كمن ينتظر شيئا ، وعادت النظرة الساخرة الى عينيه مشوبة بلمسة من الرثاء ــ لى أو لنفسه لا ادرى ــ ثم تنحنح وابتسم وقال :

ـ لسه عشرة ساغ ..

فسألته : لماذا ؟ .. فقال :

- بيضتين بخمستاشر قرش ، وتمن بسطرمة بخمسة واربعين .

فقلت له بالعباطة المناسبة لرجل مثقف مثلى :

- هى البيضة موش بسبعة ساغ ؟

- بقت بسبعة ونصف يا بيه ..

- وتمن البسطرمة بخمسة واربعين قرش ؟

- آه ..

- لكن أنا كنت زمان باشتريه بخمستاشر قرش .

فاتسعت عيناه من الدهشة ثم اهتز صدره بهمهمة مكتومة وقال:

- روح يا بيه اشتريه زمان !

فدفعت له المطلوب وخرجت وانا اسمع همهمة مشابهة من نفسى الامارة بالسوء .

- انتى كنتى عارفه أن تمن البسطرمة بخمسة واربعين قرش ؟

هكذا سألت نفسى ، فقالت بكبرياء :

- أعرف منين .. انا باشم على ضهر أيدى ؟

فتنهدت وحوقلت واستغفرت ، ثم حمد الله الذى أوجد فى جيبى - بالمصادفة - ستين قرشا اشترى بها البيض بالبسطرمة .. الاقى معاك جنيه سلف لاول الشهر ؟

****

الاجيال والحمام *

فى ذات ليلة منذ اعوام طويلة عاد احد الرجال الى منزله مبسوطا بعض الشيء بسبب أو آخر . وكانت زوجته هى الاخرى فى حال لا تخلو من الانبساط .

قال لها :

- ح نتعشى أيه يا نفيسة ؟

فقالت نفيسة :

- ح نتعش حمام .

قال الزوج وقد بدا عليه الضيق :

الغدا حمام والعشا حمام ؟ دى حاجة تزهق .

فقالت الزوجة :

- حمام الغدا كان محشى لكن حمام العشا مشوى .

فقال الزوج وهو يهز كتفه :

- أمرنا لله .

ثم تذكر امرا فقال :

- اشتريتى الجوز بكام ؟

- بتلاتة ساغ ونص .

فقال منزعجا !

- ياه .. كل حاجة عمالة تغلى . شويتى الحمام ؟

- ح أشويه حالا .

ودخلت الى المطبخ ودخل الى حجرة النوم ليخلع ثيابه . خلع البدلة على مهل وعلقها على الشماعة باحتراس ، اذ هى ليست بدلة رخيصة . لقد تكلفت ما بين القماش والتفصيل - أكثر من ثلاثة جنيهات .

وبالجبلباب جلس فى الصالة . ومن المطبخ وصلت الى أنفه رائحة الحمام المشوى ودقت فى روحه أجراس خفية مطربة .

صاح ينادى زوجته :

- عندنا طرشى ؟

لا والنبى .

فصاح ينادى الشغالة الصغيرة :

- يا عيشة !

فلما آتت عائشة ناولها قرش صاغ وقال لها :

- انزلى هاتى لنا شوية طرشى بقرش تعريفة . وتذكر امرا فقال لها وهو يعطيها قرش صاغ آخر .

- وبالمرة هاتى لنا عشرة بيضات علشان الفطار !

وبينما هى تبتعد صاح يقول :



ـ راوعى الباقى يقع منك !

ودخلت الزوجة حاملة صحنا كبيرا محملا بالحمام المشــوى ، فنهض وتبعها الى المائدة حيث أكل زوج حمام ، مع كمية محترمة من الطرشى الذى احضرته عائشة • وفى تلك الايام التى لم تـكن تعرف التليفزيون ولا الراديو قال الرجل لزوجته وهو يتجشأ :

ـ يالله ننام •

وكما قلنا كان الرجل فى حالة من الانبساط لسبب أو آخر ، وكذلك كانت زوجته • وبعد تسعة أشهر من تلك الليـلة وضعت نفيســة ولدا جميلا أسماه ابراهيم ، لان الاسماء العصرية مثل سمير ونبيل وعلاء لم تكن قد ظهرت بعد • وكبر ابراهيم وتخرج فى الجامعة وتوظف وتزوج وظهرت على زوجته أعراض الحمــــل فقالت له :

ـ نفسى قوى فى الحمام المشوى !

ولما كانت رغبات الحـــامل أوامر لاتعصى ، ولما كان ابراهيم يحب زوجته ولما كان أبوه قد ترك له ساعة جيب كبيرة بكاتينة ، فقد نزل وباع الكاتينة •

****

الانسان المصرى والخـروف

يحكى لى صديقى الرسام رخا كيف انه نزل ذات وقفة عيد مع صديقى الشاعر مأمون الشناوى واشترى كل منهما لنفسه خروفا بمبلغ جنيه مصرى فقط لا غير ! وانا شـــخصيا لم أكن أشترى الخرفان بنفسى فى تلك الايام البعيدة السعيدة ، فلما صرت رب اسرة وبدأت أشتريها كنت فى الثـــلاثين من عمرى وكان ثمن الخروف فيما اذكر حوالى عشرة جنيهات • وكرجل من الطبقـــة المتوسطة الصغيرة كان يمكنني أن أدبر هذا المبلغ ، اذ اضع يدى فى جيبى فلا أجد الا ستة جنيهات فأميل على صديق لى من الطبقـــة المتوسطة الكبيرة واقول له :

ـ كل سنة وأنت طيب •• الاقى معاك خمسة جنيه سلف ؟

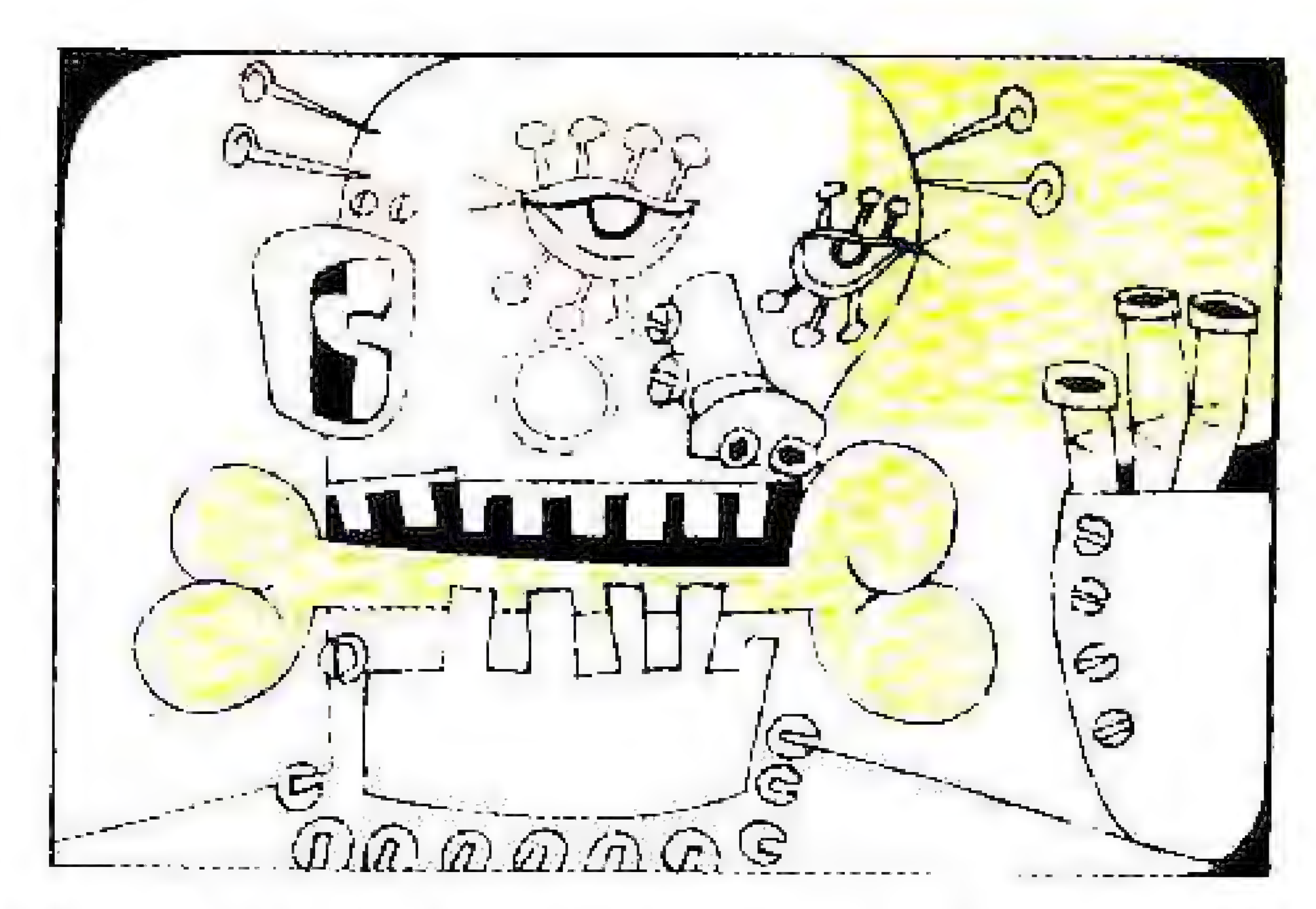
فيجيبنى باسما وهو يمد يده فى جيبه :

ـعينيه ليك !

ويعطينى الجنيهات الخمسة فأنطلق بها الى بائع الخرفان سعيدا أكاد أمأمىء ثم انقضت تلك الايام السعيدة البعيدة وأصبح ثمن الخروف ـ الذى هو خروف ـ لا يقل كما تعرف عنخمسين جنيها • وسخيف جـــداً بالطبع أن احصى الموجود فى جيبى ثم أميــل على صديقى سالف الذكر قائلا :

ـ الاقى معاك اربعين جنيه سلف ؟ !

لانه أما ان يعتذر بصنعة لطافة فأزعل أنا منه ، واما أن يعطينى المطلوب ولا أسدده • ـ ح أسدده منين ؟ ـ فيزعل هو منى ، وفى الحالين تخيم فى سماء صداقتنا سحابة سوداء غير مستحبة • وحتى لو كان معى ثمن الخروف المصرى ودفعته من جيبى فمعنى هذا أن الشهر التالى سوف يتحول بالنسبة لى من شهر ذى الحجة الى شهر رمضـــان ، صيام طويل بغير مدفع افطار !



وفى تلك الايام السعيدة البعيدة كانت لى معدة تهضم الزلط ، ولاشك أنك كنت تحظى بمتعة كبيرة لو انك راقبتنى وأنا آكل • اذ اشمر كمى عن اخره لكى أدب ساعدى (الى الـــكوع) فى بحيرة السمن البلدي التى تسبح فيها الكبد والكلاوى والقلوب والحلويات! ثم اشرع فى نهش اللحم المسلوق التائه فى اغوار الفتة ، والدهن الابيض الدسم الذى يغلف الهراديم على سبيل المناوبة مع الدهن الاسمر الذى يحيط بالريش المشوية احاطة الســـوار بالمعصم ، والذى له رائحة تدهشنى كيف نسيت مصانع العطور أن تعبئها فى زجاجات لكى تمسح الحسناوات بها ما وراء آذانهن قبل الذهاب الى عرض ازياء دولى فى شيراتون !

واصابع الكفتة والممبار التى تغيب فى فمى صباعا وراء صبا والعظمة العظيمة التى اقبض عليها بجماع يدى اليمنى وادق بها معصم يدى اليسرى ، رافضـــا ان تفوتنى قطرة واحـــدة مما ماسورتها من النخاع ! وحواف الرقاق الجافة التى أقرقشها قرقشة يسمعها الناس فى آخر الشارع ، مبلعا أياها بشىء من لحم الرأس أو الكوارع التى يسيل دسمها على عنقى ويتسلل الى الفانلة !

راحت تلك الايام السعيدة البعيدة، راحت ولن تعود ابدا • أن معى اليوم ثمن ذلك الخـــروف المصرى التعس فكيف تنج

أسنانى فى مضغه . وكيف تنجح معدتى فى هضمه ، وكيف تنجح مصارينى فى امتصاصه ، دعك من مصيبة النجاح فى التخلص منه؟!

وحيث انه لا تجوز على الميت الا الرحمة فرحم الله هتلر الذى قرر فى ذات يوم ان تكون المانيا فوق الجميع فخرب بيت الجميع ! ورحم الله كل من اتى بعده واسهم فى هذه الكارثة الحضارية، كارثة انقطاع العلاقات بين جنس الانسان المصرى المعاصر من الطبقـــة المتوسطة وبين جنس الخروف ، ولا مؤاخذة اذا كنت قد نسيت أن اقول لك كل سنة وانت طيب !



* الفصـــل الرابع *



كل سنة وأنت طيب...

* عام جديد هل هو سعيد ؟ *

عام جديد ، كل عام وانتم طيبون ، والعام الجديد يبدأ دائما – لانه لا يعتمد على استطلاع الهلال – بعد ٣١ ديسمبر مباشرة . وشهر يناير بالرغم من برده الشديد يثير دفئا غريبا فى نفسى .. وذلك لانه الشهر الذى تصرف فيه الارباح السنوية لى ولآلاف غيرى ، ومن منا لايشعر بالدفء وهو يقلب بين يديه عدة ورقات حمراء ؟ فبهذه الارباح قد اشترى – على سبيل التغيير – كيلو لحم بتلو بدلا من الكندوز الذى يحتاج الى رجل غيرى ليمضغه لى .. وقد اشترى فى لحظة تهور زوجا كاملا من الحمام احشوه بالارز المتبل بالبصل والفلفل ، ولكننى واثق من ان تهورى لن يصل ابدا الى درجة ان اشترى كيلو جنبرى . والحمد لله اننى لا احب الجاتوه الذى سمعت أن ثمنه زاد فى المحلات الشعبية على عشرة قروش للواحدة ، وفى المحلات الاليطة على ثلاثين قرشا .

ولا ننسى فضلا آخر لارباح شهر يناير ، فبدونها كيف يمكننى ان أسدد ديون شهر ديسمبر ؟

وبعد يناير يأتى فبراير ، وهو شهر لا بأس به أيضا . فهو الشهر الذى يقع فيه عيد ميلادى السعيد ، الذى اعتدت فى السنوات الاخيرة أن اقضيه بجانب المدفأة الكهربائية مالم تكن الكهرباء مقطوعة . وعيد ميلادى يوم يخيم على الحزن فيه لسبب

غير مفهوم ، وهو فى أغلب الظن حسرتى على اليوم السابق عليه .

ففى مثل هذا اليوم السابق كنت فى جوف أمى سعيدا مرتاحا دافئا ، هى تتنفس وتصاب بالكحة وانا أستقبل الاوكسجين صافيا نقيا .. ، هى تأكل الفول المدمس وتهضمه وتصاب بعسر الهضم ، وانا أتلقاه مهضوما مصفى لذيذا .

ومن افضال فبراير بالطبع أنه لا يزيد على ٢٩ يوما ابدا ، ومن ثم لا يضطر الواحد منا الى أن يجوع فى اليومين الاخيرين منه كما يحدث فى شهر مارس .

وهذا الشهر – مارس – من أبغض الشهور الى قلبى وارذلها على نفسى . صحيح أنه بداية الربيع الذى أتاك – كما قال الشاعر البحترى – يختال ضاحكا ، ولكننى لا أحب أيا من الربيع أو البحترى . فربيعنا يأتى مزمجرا لا ضاحكا ، محملا ببشائر اتربة ورمال الخماسين .

وفى الحادى والعشرين منه يقع عيد الام ، والام بالطبع على عينى وراسى . ولكن ما ذنبى أنا حتى اقرض أولادى فلوسا – لايردونها طبعا – كى يشتروا بها الهدايا لامهم ، وأكون بذلك قد احتفلت بثلاث امهات لا أم واحدة ؟

والداهية الكبرى تأتى بعد ذلك ، عندما افتح الجريدة ذات صباح أغبر لكى اقرأ فيها تحذيرا رهيبا من مصلحة الضرائب يقول لى ان ٣١ مارس هو آخر موعد لدفع ضريبة الايراد العام . ولا حاجة بى بالطبع لان أشرح لك المرارة التى يشعر بها الرجل وهو يدفع ضريبة الايراد العام ، وهو الذى ما برح يدفع ثلث مرتبه الشهرى لخزانة الدولة طوال العام ! فهذه الضريبة تجعل الرجل يدفع الضرائب مرتين ، ومايدفعها بالطبع الا الغلابة أمثالنا ، الذين لهم أسماء مثبتة فى دفاتر رسمية ولهم دخل منظور . ولن ادهش لو سمعت عن رجل يملك ثلاث سيارات فاخرة له وللمدام وللولد ، ومع ذلك – لان دخله غير منظور ولا معروف – يدفع ضريبة مساوية للضريبة التى ندفعها .. أنا وانت .. ويا ليتنى ما أكلت البتلو والحمام ووفرت قرش الارباح الابيض لهذا اليوم الاسود !



* ايام اللحمــة *

فى العيد الكبير يطفو اللحم على سطح كل الاشياء ، يكبس عليها ويطمس معالمها ويكتم انفاسها لكى يصبح هو السيد الوحيد ، وكل سنة وانتم وانتن طيبون وطيبات ٠

أم كلثوم تغنى - كما تفعل من خمسين سنة - أغنية يا بهجة العيد السعيد ، وصوتها يضيع وسط مأماة آلاف الخرفان ، وصوت خشن متوحش لرجل يسير فى الطريق بجلباب ملطخ بالدم وهو يصرخ معلنا على الناس انه جزار ، جزار ، جزار ! وربما فى الوقت نفسه صوت دق الخوازيق فى أساس عمارة جديدة يبنيها أحدكبار الجزارين ، وكل سنة وانتم طيبون ٠

ورائحة الشواء هنا وهناك تطغى على كافة الروائح حتى رائحة المجارى الطافحة ، مثلما تطغى عطور كريستيان ديور على رائحة العرق فى جسم أنثى مفرهدة لسبب أو آخر ٠

وفى خلال ذلك ينسى الناس كافة مشاكل العالم ، معارك شرق آسيا وايران وافغانستان وأزمة كوبا ، كلها تختفى عن العيون وراء التلال الشامخة للفتة واللحم المسلوق ، ومشكلة القرن الافريقى تتوارى وراء قرن الخــروف ٠٠ حتى الصواريخ الموجهـة ذات الرءوس الذرية تختفى هى الاخرى وراء أصـابع الممبار الطويلة المشوقة ذات الرؤوس الدهنية ، وكل سنة وانتم طيبون ٠

هو امتحان للشراهة والطفاسة ينجح معظم الناس فيه بدرجةجيد جدا على الاقل ٠ لا أحد يسقط فيه ويطلع منه - مثل بعض طلبة الجامعة - بأية مادة من مواد اللحم !

المعدة تصرخ من كثرة ما تلقت من اللحم ، والمصـارين تئن وتتوجع ، والكبد يلطم خديه ، والناس ما زالوا جالسين حول موائد اللحم منذ ساعتين والكفاح دوار !

ورحم الله أيام زمان عندما كانت لى أسنان تمضغ ومعدة تهضم وكنت واحدا من أولئك الناس ٠ وانى لاذكر ذلك الصحن الغويط

الذى كانوا يملأونه لى بالكبد والكلاوى والحلويات الغارقة فى بحر من السمن البلدى ، وكنت أدب فيه يدى بربع رغيف كامل ولا أقنع الا اذا غاصت ـ يدى ـ الى أعمق الاعماق وأوشك السمن أن يصل الى كوعى ! ولربما استخدمت بدلا من الخبز قطعة من الرقاق الذى يخر هو الآخر سمنا ، لتكتمل لى متعة امتزاج الكبد والكلاوى بما فى الرقاق من لحم مفروم ، وذلك قبل أن أنتقــل الى الكستليتة المشوية والهراديب العظيمة من اللحم المسلوق ، وكل سنة وانتم طيبون !

اما اليوم وقد فقدت الاسنان قوتها ـ أو فقدت وجودها ، مثلما فقدت المعدة شجاعتها القديمة ، فقد أصبحت المسألة مجرد نقنقة ، قطعة من هذا وقطعة من ذاك وانتهينا . صحيح ان هذه القطع قد تصل الى عشر قطع ، لكننى لا اذكر أن السمن قد وصل طــوال السنوات الاخيرة الى أبعد من معصمى .

وارجو أن لا تكون قد صدقت حكاية العشر قطع هذه ، فما هى الا مجرد محاولة لنكتة . فلا صحتى تحتمل هذه الكمية ولا ـ اذا انا عملتها فى نوبة مغامرة ـ يحتملها جيبى وفقا للاسعار الحالية . فلو أننى فعلت ذلك لاقتدى سائر افراد الاسرة ، فى هذا العصر الذى لم يعد فيه لرب الاسرة أى نوع من الامتيازات الخاصة . فاذا تم ذلك فمعناه أن أمامى شهرا كاملا لا ادب فيه يدى فى أى شىء سوى الزيت الذى فى صحن الفول ، وتكون منحة العيد قد تحولت والعياذ بالله الى محنة العيد ..

ومرة أخرى ـ ومعذرة عن هذه الكتريعة ـ كل سنة وأنت طيب .

****

كئيب يوم العيد !

كل الناس تصبح فى يوم العيد فرحانة مبسوطة تلبس ملابسها الجديدة وتخرج للفسحة والفرفشة ، وذلك باستثنائى أنا طبعا ..

كآبة غريبة زحفت على روحى صباح يوم العيد ، واحســاس مرير بتفاهة الاشياء وعبث الحياة كلها .. فأسندت خدى على يدى ورحت افكر فى السبب الكامن وراء هذه الظاهرة .

قد يكون ذلك السبب ـ قلت لنفسى ـ احساسا مبهما بمأساة التبديد لملايين الجنيهات فى شراء الدقيق والسمن والسكر وسائر مستلزمات كحك العيد والغريبة والبسكويت وغيرها .. وبطون تمتلىء الى حد التخمة وتبحث عن الطبيب فتجــده فى اجازة ، وحال من الخراب لكل من الجيب والصحة .

وربما كان ذلك السبب ـ قلت لنفسى ـ احساسى بملايين الساعات التى ضاعت من حياة ربات البيوت فى عجن الكحك وتقطيعه وحشوه بالعجمية ثم نقشه بالمنقاش ، وذلك توطئة لتحميل عشرة صاجات منه على دماغ شغالة صغيرة شاحبة عندها بلهارسيا . الى الفــرن تذهب ومنه تعود بعد ساعات لكى تأخذ علقة حامية ، لان الست لا تصدق أن زحام الفرن هو السبب فى ذلك التأخير .

ولعل ذلك السبب ـ قلت لنفسى ـ هو احساسى بتعاســة اخوانى الحيوانات فى حديقة الحيوان ، وسط آلاف من الناس فى آخر هستيريا .. أناس لا يعرفون النزهة الا فى الاعيـاد ، ولذلك فهم يصرون على أن يتنزهوا بأقصى قوتهم فى هذا اليوم المفترج .. واحساسى أيضا بحشائش الحديقة وهى تمـوت تحت آلاف الاقدام المجنونة والارداف المبروشة وتختنق وسط قشور البيض المسلوق ونفايات السمك البكلاه والبصل الاخضر .

وأمام الحديقة فرامل كثيرة حادة للسيارات ، وفى الهــواء يطير صبى فى جلباب جديد مخطط ، أو بنت فى فستان أحمر اللون لامع .. والتروللى المتوجه الى الحديقة يوشــك أن ينفجر بمن فيه من طلاب الفسحة ، مخلوع السنجة واقف معظم الوقت أكثر منه سائرا .. وخناقات حامية تنشب فى ذلك الزحام الجهنمى ، فيها بونيات وروسيات ومطاوى قرن غزال ، ودماء تســيل ومحافظ تنشل

واعراض تهتك ٠٠ وراديو ترانزستور مع أحد الركاب ينبعث منه أعلى صوت ممكن لام كلثوم وهى تغنى ببهجة العيد السعيد !

وكل سنة وانت طيب سعيد فرحان وعندك دواء لعسر الهضم ٠

****

* ليلة راس السنة *

خطر لى أن أسهر ليلة رأس السنة كما يفعل الكثيرون ، فآكل وأشرب وأضحك وألبس طرطورا ، وعند اطفاء الانوار فى منتصف الليل (ان لم تكن الكهرباء مقطوعة من الاول) أخطف قبلة من هذه الوجنة أو تلك ٠ ثم قلت لنفسى بلاش ياواد ، خير لك أن تسهر هذه الليلة وحدك وراء باب مغلق ، لكى تتأمل حياتك خلال العام الماضى ، وتستعرض ما أتممت فيه من انجازات ٠

****

تحت اللحاف !

كان أول ما خطر لى من تلك الانجازات اننى ـ استنادا الى كونى أنام ثمانى ساعات فى اليوم ـ قد قضيت ثلث العام غارقا فى النوم ٠ أى أننى صحوت ثمانية شهور وغبت عن الوجود أربعة شهور كاملة! حقيقة أزعجتنى بعض الشىء ، لكننى ما لبثت أن قلت لنفسى ولماذا الانزعاج ياواد ؟ ألا تلاحظ ياسيد أن تلك الشهور كانت أهدأ وأدفأ شهور العام كله ؟ صحيح انه قد تخللتها بعض الكوابيس المزعجة ، ولكن متى كانت كوابيس النوم أكثر ازعاجا من كوابيس اليقظة ؟!

اتفضل شاى !

وكان من عادتى ـ خلال هذا العام وغيره من الاعوام ـ أن أشرب الشاى مرتين فى اليوم ، وأنا عندما أشرب الشاى ـ كأى انسان مصرى أصيل ـ أشرب الشاى ! أى اننى أشربه بالاحساس الصوفى المناسب ، وأرفض أن أفسد متعته بأي عمل آخر ٠ صحيح أن شاى الصباح يقترن عادة بقراءة الجريدة ، وانها فى بعض الاحيان تقدم لى أنباء تفسد متعتى ، ولكنها فى معظم الاحيان تزيد من متعتى عندما تضحكنى وحيث أن مدة شرب الشاى لا يمكن أن تقل عن نصف ساعة ، فمعنى هذا أننى قضيت ٣٦٥ ساعة فى شرب الشاى ، وبتحويل هذه الساعات الى أيام يتبين أننى قد انفقت فى شرب الشاى أسبوعين كاملين من السنة !

****

داهية عصرية

ثم ننتقل الى داهية كبرى من دواهى حياتنا العصرية هى والعياذ بالله حلاقة الذقن ! ولست أدرى كم من الوقت تحتاج أنت لحلاقة ذقنك الخاصة ، أما أنا فأحتاج الى أكثر من نصف ساعة ٠ ذلك اننى لابد أن أكتشف قبل الحلاقة أن علبة الامواس خالية تماما ، وأرسل من يشترى علبة جديدة ٠ فاذا أتت الامواس تبينت أن انبوبة المعجون هى الاخرى خالية تماما ٠ فاقرر استخدام صابونة عادية ، توطئة لان أكتشف اختفاء فرشاة الحلاقة ، دقائق طويلة تضيع فى البحث عنها حتى أعثر عليها فى آخر مكان أتوقعها فيه وهو درج النملية ٠ ثم أشرع فى الحلاقة مناوبا بين الحلاقة وتجفيف الصابون الذى يسيل على معصمى ويدخل فى كم البيجامة ٠ أى إننى قد ضيعت ما لا يقل عن أسبوعين كاملين من العام فى حلاقة ذقنى ٠

وداهية اخرى

وداهية أخرى من دواهي العصر هي التليفون · واذا كان الرجل الاوروبي لا يحتاج في ضرب التليفون الى أكثر من دقيقة ، فالرجل القاهري لا يمكنه كما تعلم أن يطلب نمرة في أقل من نصف ساعة · فاذا افترضنا أنني أطلب نمرة او نمرتين في اليوم ، فها هي ٢٠ يوما من عامي المبارك قد ضاعت في ضرب التليفون ·

****

ذهاب واياب

ولكي أذهب الى عملي يجب أن أركب تاكسيا ، ولكي أركب المذكور يجب أن أعثر عليه ، وآدي نص ساعة · ولكي أصل الى مقر عملي يجب أن أمر في شارع رمسيس (عشرة آلاف سيارة واقفة) ، فهي ساعة أخرى في الوصول · ورحلة الاياب مثل رحلة الذهاب ، والحسبة كما حسبتها أنا (حاول أن تراجعها) بينت لي أنني قد قضيت في الشارع ما يقرب من شهرين !

****

الناحية الناموسية

والانسان العادي لا يجب أن يترك الناموسة تقرصه ، بل انه اذا شعر بها رفع يده لينشها ويهرش · واني لانش الناموسة فتدور حولي وتعود ثانيا ، وأنشها فتعود ثالثا ورابعا وخامسا · فاذا افترضنا أن مكافحة النموسة الواحدة تحتاج الى نصف دقيقة ، واذا وضعنا في اعتبارنا أنني كافحت خلال هذا العام ما لا يقل عن مليون ناموسة ، فارجو أن تقوم أنت بهذه الحسبة لانني لا أملك آلة حاسبة !

واخيرا

هكذا تراءت لي انجازاتي في صورة قاتمة حقا ، وأسفت على أنني لم أمهر مثل سائر الناس والبس طرطورا · وإني أسمع صوت الساعة تدق منتصف الليل ، وها هو النور قد انطفأ من نفسه ، فهات وجنتك لكي أطبع عليها وفقا للتقاليد قبلة ، وأرجو أن تكون وجنتك بكسر الكاف لا فتحها ، وكل سنة وانت طيب !

****

الفسيخ والناس

نسمات ربيعية طرية تداعب وجهي حيث جلست في الحديقة ، وتتسلل الى صدري محملة برائحة النباتات الخضراء ،مع لمسة حرافة من رائحة الفسيخ والبصل · والفسيخ ليس في بيتنا نحن بالطبع ، فبالرغم من حفوله – بيتنا – بالاجسام الغريبة فهي لا تصل في غرابتها الى درجة الفسيخ ·

ومن يومين سألني صاحبي قائلا :

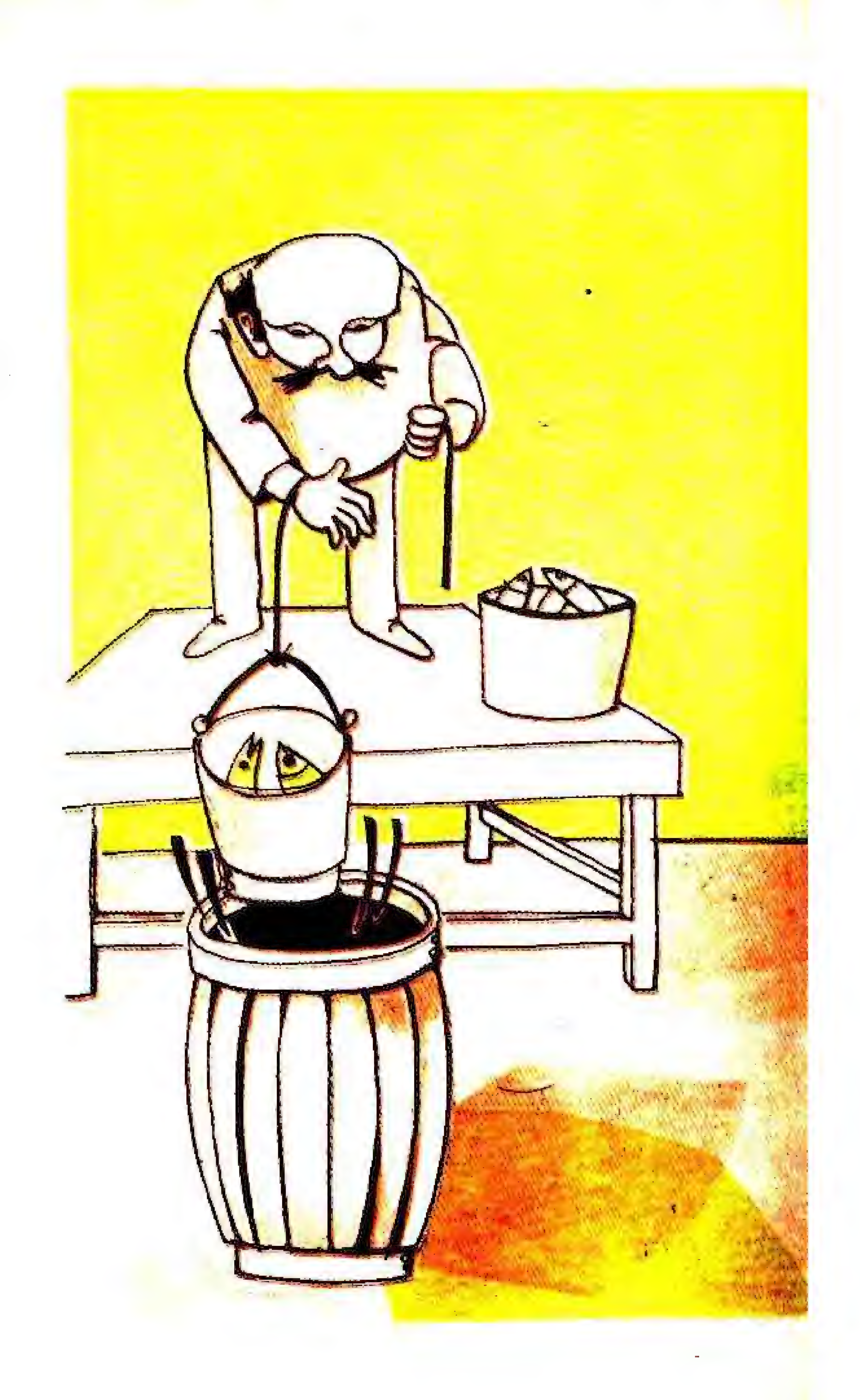
– ح تشم النسيم فين ؟

فأشرت باصبعي الى الكرسي الذي أجلس عليه في الحديقة ، فبدت على وجه صاحبي دهشة بالغة وقال غير مصدق :

– تشم النسيم في البيت ؟!

فقلت له آه ، ورأيت الدهشة التي في وجهه تتحول الى نوع من الريبة الشديدة ، وسرعان ما نظر في ساعته ونهض مستأذنا في الانصراف ، هاربا من هذا الانسان الغريب الذي يشم النسيم في البيت ·

فهناك في عرف الناس قانون غير مكتوب يلزم الانسان المصري بأن يقضي شم النسيم خارج بيته ، بل وخارج مدينته اذا أمكن · اذا



كان يقيم فى القاهرة فيجب عليه فى هذا اليـــوم أن يســـافر الى الاسكندرية ، أو الى السويس أو الفيوم ، أو الى برج المنوفية أو القناطر الخيرية وهذا أضعف الايمان · والغردقة بالطبع ـ لقربها من مدار السرطان ـ أفضل من كل ذلك ، حيث أن الرحلة كلما كانت أطول وأصعب وأعن ، وعاد الانسان منها منهكا محطما مهدود الحيل ، كانت أبرك وأجدع وأوفى بالاحترام الواجب لهذا اليـوم ، المفترج · ولا يجوز للانسان المصرى بالطبـع أن ينطلق الى هـــذه الرحلة بيد فاضـــية ، بل يجب أن تكون فى يده اليمنى حقيبة أو سلة تحتوى على شىء أعتقد أنك تعرفه جيـــدا ، وفى يده اليسرى سلة أخرى تضم دستتين على الاقل من البيض الاحمـــر والاخضر والاصفر والازرق والبنفسجى ، الى جانب البصل الاخضر والابيض والاحمر ، وعشرين ليمونة أخذها من البائع ـ بالعافية ـ بجنيه واحد·

وفى مكان هادىء (خمسين ألف نسمة فى الكيلو متر المربع) يجلس على شاطىء البحر أو فى حديقة عامة ، ويفتح الحقيبـــة التى تنبعث منها رائحة نفاذه وكلما عاد الانسان منها منهكا محطما مهدود الحيل كانت أبرك وأجدع وأوفى يضعها أمامه وهو يبتسم لها ، ويوشك من فرط حبه لها أن يطبطب عليها ويرفعها الى فمه ليقبلها ثم يفتح السلة الاخرى ويخرج ما فيها من بيض وبصل وليمون ، وخمسة أرغفة على الاقل ، وست زجاجات كازوزة ، وسكينا حامية ·

بيده اليسرى يضغط على ذيل الفســـيخة لكيلا تهرب ، وبيده اليمنى (الا اذا كان أشول) يحك بالسكين جلد الفسيخة لكى يزيل عنه ما يغطيه من الصدف والقشور الجافة ، وقشرة منها تطير وتدخل فى عينه فيخرجها منها فى غير اكتراث · وبمهارة الجراح البارع يشق الفسيخة شقا طوليا، ويفتحها ليخرج ما فى بطنها من مصارين، اذ أن المصارين ليست من الاشياء التى يجدر بالرجل المتحضر أن يأكلها ، حتى بالرغم من النتانة العامة للموقف · وبين المصارين ، قد يعثر ـ اذا كان سعيد الحظ ـ على قطعة من البطارخ يســـارع بقذفها فى فمه وابتلاعها بدون مضغ على ســـبيل مسح الزور ·

والبطارخ – كما قيل لى والعهدة على الراوى – هى تكتلات لبيض السمك ، أى أن الرجل وقد التهم تلك القطعة من البطارخ يكون فى الحقيقة قد أكل مائة ألف سمكة صغيرة .

ثم يعمد الانسان المصرى الى نزع سلسلة الفسيخة والقائها جانبا، وبالسكين يحدث فيها عدة شقوق عرضية تحولها الى شرائح لزوم سهولة الاكل . وخمس ليمونات يقطعها ، وست بيضات مختلفة الالوان يكسرها ، وبالليمون يغرق شرائح الفسيخة لكى يقتل كما سمع من والدته سمها – سم الفسيخة بالطبع لا سم الوالدة .

ثم يشمر أكمامه ويشرع فى الاكل . ربع رغيف كامل يدسه فى فمه مع شريحة هائلة من الفسيخة ، ويتبع الاثنين بنصف بيضة حمراء ، ورأس بصلة خضراء ، ويروح يمضغ الجميع على مهل وهو يرسل الى الافق البعيد نظرة حالمة تشبه أن تكون صلاة صامتة . فاذا ما انتهى من المضغ وهم بالبلع رفع زجاجة الكازوزة الى فمه وقربع نصفها لكى تسهل له المسالة ، تمهيدا لربع رغيف آخر وشريحة فسيخ أخرى ، وبصلة بيضاء وبيضة بنفسجى .

****

قمر الدين

لا شك أن الرجل الذى اخترع قمر الدين كان عبقريا من نوع خاص . كان عبقريا مرة عندما نجح فى تجفيف المشمش وفى ضغطه وتحويله الى تلك الرقائق الملفوفة فيما يشبه ثوب القماش .

وكان عبقريا مرة ثانية عندما اختار الموسم المناسب لتسويقه وهو شهر رمضان ، اذ يجوع الناس ويعطشون ويصابون بما نسميه تخاريف الصيام ،ويكونون على استعداد لتقبل أية تقليعة من تقاليع الطعام والشراب .

وكان عبقريا للمرة الثالثة عندما اختار لبضاعته ذلك الاسم الموفق وتلك الماركة المسجلة – قمر الدين . فأى تسمية تكون أنسب للشهر المبارك من تلك التى تتمسح أولا بالدين ، وثانيا بالقمر الذى وفقا لحركته تتحدد مواعيد الشهور الهجرية على مدار العام ؟ الدين والقمر ، أية تسمية يمكن أن تكون أوقع فى النفوس من هذه التسمية الملهمة : قمر الدين ؟

ومن النفوس البريئة ما يختلط عليها الامر ، ويخيل اليها – ما بين القمر والدين وشهر الصيام – ان فى هذا المشمش المضغوط نوعا خاصا من البركة ، وأنه يزيد عند احتسائه على صوت مدفع الافطار من ثواب الصائم ، ويوشك أن يندرج بين شعائر الدين .

ومما لا يقبل الشك أن ذلك الرجل العبقرى كان يملك الى جانب عبقريته مزرعة كبيرة للمشمش ، والا فمن أين أتى بكل هذه المادة الخام ؟؟ وحيث أن المشمش لا يزرع فى مصر الا على نطاق ضيق ، فاذا طرحت أشجاره ثمار المشمش فهى فى الغالب تطرحها جلدا على عظم ، فلابد أن ذلك الرجل لم يكن مصريا ، وانما كان مواطنا فيما كنا نسميه زمان بر الشام ، ذلك البر الذى شاءت ارادة الدول الاوروبية أن « تفكه » الى تلك الدويلات المسماة بسوريا ولبنان والاردن وفلسطين . وهذا شىء ليس بغريب ،حيث أن أحدا لاينكر العبقرية التجارية التى يمتاز بها بر الشام ، ولعلك تذكر أيام الوحدة بين مصر وسوريا فى الستينات ، وكيف كانت أولى نتائج تلك الوحدة هى امتلاء شوارع القاهرة بوباء الشاورمة .

وأغلب الظن أن هذا الرجل هو الذى ابتكر المشمشية أيضا ، فلماذا لا يبيع المشمش مجففا بدون أن يكون مضغوطا ؟ ولابد أن مزارعه كانت تضم الى جانب المشمش شيئا من الجوز واللوزوالبندق والفزدق والقراصيا ، والا فلماذا صارت تلك الاشياء هى المقومات الاساسية لاكلة المشمشية ؟ والزبيب يقطع بالطبع بأنه كان يملك

فى الوقت نفسه حدائق شاسعة لزراعة الكروم ، فهو يجفف الاعناب لزوم شهر رمضان ، وفى وقت فراغه يقطرها لزوم الشهور الميلادية .

ونرجع لقمر الدين الذى يشرب الرجل كوبا منه فتتشـبع فى معدته كمية من الحموضة تكفيه الى شهر ذى القعدة ، وربما كفته الى شهر رمضان التالى . وهى الحموضة التى تتضاعف بالطبع عند تفاعلها مع الفتة والرقاق والمشمشية وغير ذلك من مستلزمات الصيام .

ونسيت أن أحدثك عن الصنوبر – الصنيبر كما ننطقه عادة – الذى هو أحد العناصر الهامة فى المشمشية ، اذ مشيت فى الاسواق فوجدته معروضا للبيع بسعر خمسة عشر جنيها للكيلو ! ورجل ظريف من أهل البلد تصادف أن كان واقفا بجانبى فقال لى مستدرجا :

– البيه يزعل من الهزار ؟

فخطر لى أن أعطيه فكرة عن مهنتى ، ولكننى أحجمت من باب الاحتراس وقلت له بايجاز :

– أبدا ، اتفضل .

– فقال لى :

– ماهيتى وماهيتك .

فقلت له :

– اشمعنى ؟

قال :

– ما يعملوش مشمشية .. هم هم هم !

وكل سنة وانت طيب ، ولا تهمك الحموضة !

****

شهر من السكر

السكر فى المشمشية – يا حلاوته . والسكر فى قمر الدين السائل دائما والمطبوخ أحيانا . والسكر المعقود فى الكنافة ، والسكر الذى يخر من القطايف . والسكر فى الاماطية ، والسكر فى الخشاف ، والسكر فى المهلبية ، والسكر فى البالوظة ، وبعض الناس يرشونه على الزبادى . والسكر فى شيء غصب على بتذوقه بعض الكرماء وتبين لى أن أسمه – لحظة للزغطة – « أم على » ! والسكر فى الشاى الذى تشربه قبل أكل تلك الاشياء لكى تعدل به دماغك : ثم تشربه فى النهاية لكى تحبس به كل ذلك .

وينتهى رمضان فيأتى عيد الفطر المبارك ، كل سنة وانت طيب . والعيد يحتاج الى كحك ، والكحك يحتاج الى سكر . السكر فى العجمية التى يحشون بها الكحك ، أو فى الملبن الذى يستخدمونه فى بعض الاحيان كبديل للعجمية . ثم ينقش الكحك ويرسل الى الفرن ليستوى ، خمسة صاجات على الاقل فوق دماغ الشغالة الصغيرة توشك أن تنوء بحملها ، أو شغالة كبيرة جاعت على كبر ورأت أن تشتغل فى بيوت الناس . والكحك الساخن يعود من الفرن فى شوق بالغ الى السكر ، فيرشون عليه ليطفئوا ناره بين الشقوق المنقوشة ، أبيض ناصعا مثل الثلوج التى تغطى جبال الالب .

والسكر فى البسكويت الذى يصنعونه على شكل دائرة أو فيونكة أو نجمة أو غير ذلك ، وفقا لثروة ربة البيت من القوالب ، والسكر بالطبع فى الغريبة التى اذا كانت ربة البيت سخية فى السمن فانها – الغريبة لا ربة البيت – تذوب فى فم الاكل ذوبانا مثل الغريبة تماما !

والسكر فى الجمعية ، وأمام الجمعية طابور مكون من الف ومية ! فتذهب الى البقال الذى يقول لك تلك الكلمة الخالدة : مافيش ! فلا تجد مناصا من أن تبحث عن أم ابراهيم الدلالة وتشتريه منها بسعر الكيلو خمسين قرشا .

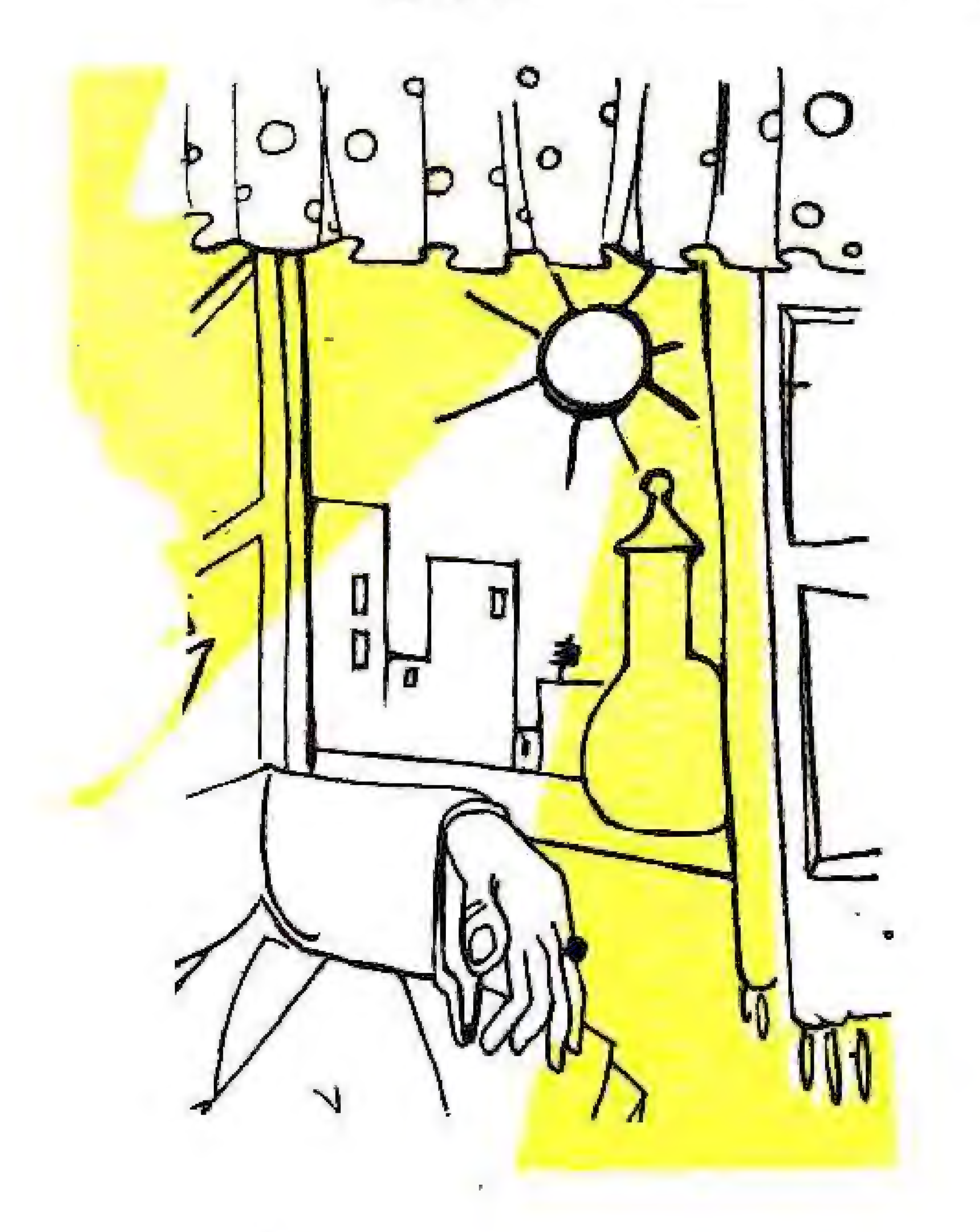
فلو أننا جمعنا كمية السكر التى تهدر فى هذا الموسم المبارك وحولناها الى قوالب لامكننا أن نبنى بها هرما لايقل فى ضخامته عن هرم خوفو ،فيصبح لدينا هرم رابع نسميه – تشجيعا للسياحة –هرم الملك سنترفيش !

السكر فى كل شيء ، والله ما أعجب اذا رأيت رجلا يرشه على الفول المدمس أو السلطة الخضراء . فلو أنك ذهبت بعد العيد الى طبيب التحاليل ليأخذ عينة من دمك لقـــال لك : دمك شربات يا مضروب !

كل سنة وأنت طيب ، ولا أفرغ الله لك بطنا !



* الفصل الخامس *



عن الشمس والبحر ...

* الشمس خير من كل ذلك ! *

كانت بهدلة جوية لا مثيل لها فى الاسبوع الماضى ، ممثلة فيما يسمونه بنوة قاسم ! وأنا لا أعرف من هو قاسم هذا ولكننى أكرهه بدون معرفة . حبسنى قاسم هذا داخل البيت ثلاثة ايام متواصلة، من وراء النوافذ المغلقة والجدارن أستمع الى عويل الرياح وهدير المطر ، وبالطبع أرتعد . وفجاءة بدا أن السيد قاسم قد مات ، وفتحت نافذتى صباح السبت الماضى عن سماء زرقاء صافية كما يجب أن تكون السماء، وشمس مشرقة كما يجب أن تكون الشمس . ولقد رأيتهم فى لندن اذ طلعت مثل هذه الشمس (ونادرا ماتطلع اذ ان السيد قاسم يقيم هناك باستمرار) يسارعون بخلع الملابس وارتداء المايوهات ، ويستلقون على الحشائش فى الحدائق العامة أو الخاصة أمام بيوتهم ، أشبه شىء بحيوان القيت له قطعة كبيرة من اللحم بعد أن جاع شهرا كاملا !

ومثل ذلك الحيوان أسرعت انا الى الحديقة والقيت بنفسى بين أحضان الشمس الساخنة مثل صحن شوربة عدس نزل لتوه من على النار ! سخونته تخترق البلوفر والقميص والفانلة والجلد والعظم وتوشك أن تذيب النخاع الذى فى جوف ذلك العظم ! طلعت يا ما أحلى نورها الشمس الشموسة ، والحمد لله اننى لست مكلفا بأن أحلب لبن الجاموسة !

ويبدو أننى من شدة السخونة والاسترخاء أخذت تعسيلة ، وفيما بين اليقظة والنوم رأيت رجلا غريبا يدخل الى الحديقة ويجلس أمامى .. راح يتأملنى حينا فى ازدراء مغلف ثم تكلم :

ـ هل يليق بك أن تجلس فى هذه الحال من الكسل ؟

ـ وما شأنك أنت يا أخ ؟

ـ انى أحب مصلحتك ، وعندى اقتراح يعجبك .. انهض معى ولنذهب الى شيراتون !

فقلت له فى دهشة بالغة :

ـ امجنون أنت ؟ انهض واترك هذه الشمس !؟

فتفكر حينا ثم قال :

ـ بماذا تتغدى اليوم ؟

ـ شوربة عدس نازلة لتوها من على النار !

ـ يا لك من مسكين ! أتعرف ماذا يمكنك أن تأكل فى شيراتون ؟

ـ لا يهمنى أن أعرف . شوربة عدس فى الشمس خير من ديك رومى فى الظل !

فتريث حينا ثم قال بابتسامة خبيثة :

ـ لعله يهمك أن تعرف ان هناك سيدة جميلة فى انتظارك !

ـ سيدة ؟

ـ نعم ، ويبدو من أمرها أنها تميل اليك .

ـ ومن أين عرفتنى تلك السيدة سليمة الذوق ؟ .. وهل هى من نزيلات الفندق ؟ هل لحجرتها شرفة قبلية ؟

ـ لماذا تسال ؟

ـ لكى أجلس فيها فى الشمس !

ـ اتفضل الشمس على سيدة حسناء ؟

ـ هل هى ساخنة مثل هذه الشمس ؟

ـ على طريقتها !

ـ ولكنها لن تذيب النخاع فى جوف العظم .

فقال بلهجة اغراء : آه لو رأيت عيونها الخضراء !

— لا يمكن أن تكون أكثر خضرة من أشجار هذه الحديقة !

— ورشاقتها يا سيدى ٠٠ انها فى الرشاقة مضرب الامثال ٠

— لا يمكن ان تكون أكثر رشاقة من زهرة بنت القنصل الحمراء، التى تتمايل أمامك فى أعلى عودها المياد !

— وعطرها يا سيدى وشذاها ٠٠

— لا يمكن أن يكون أذكى من عطر شجرة الياسمين !

— ان الياسمين لا يزهر فى الشتاء ٠

— مازال عبيره فى أنفى من أيام الصيف !

— انها ستقابلك اليوم وغدا وبعد غد ٠٠

— ها ٠٠٠ وبلاش أقعد أنا فى الشمس !

— يظهر أنك راجل تلح !

فأجبته ساخرا :

— اسم الله على مقامك أنت !

فنهض غاضبا وأولانى ظهره ، فصحت فى أثره :

— قل لها أن تنتظرنى عندما تغيب الشمس ٠٠ فى نوة قاسم القادمة ٠٠ !

فخرج من باب الحديقة دون أن يلتفت الى . وانتبهت أنا من غفوتى على صوت ينادينى من داخل البيت :

— شوربة العدس جاهزة ٠٠ ح تأكلها عندك فى الجنينة ؟

فصحت أجيب الصوت :

— امال ح آكلها فى شيراتون ؟!

والبخار يتصاعد أمامى من صحن العدس الساخن ، والسائل الساخن يغيب فى جوفى حيث جلست فى الشمس ، سخونة فى الارض وسخونة فى السماء ، نعمة من الله بعد محنة السيد قاسم !

****

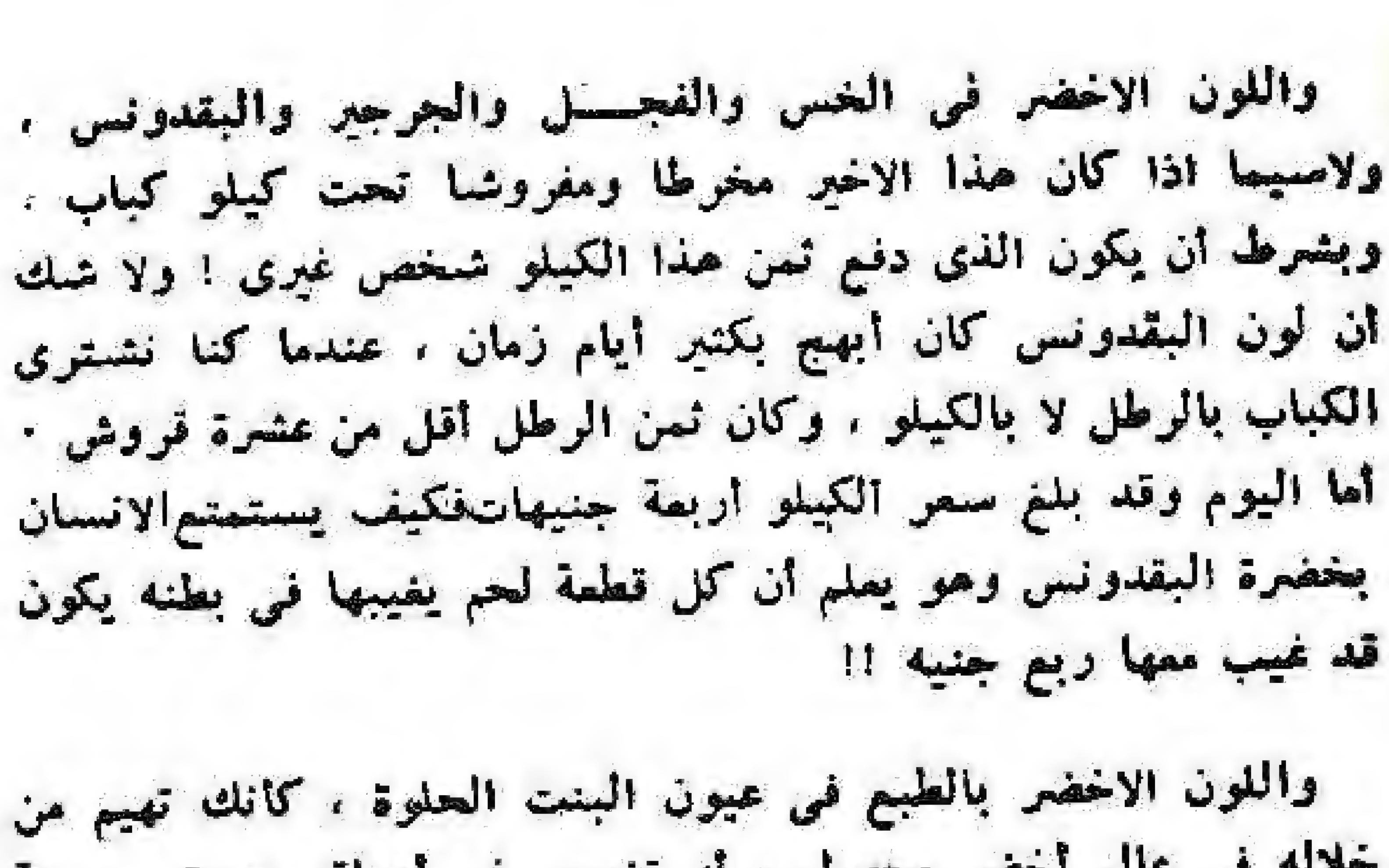
❋ عندما تتكلم الالـوان ! ❋

عندى غرام بالالوان بمختلف أنواعها ، حتى بعد ان قال لى علماء الطبيعة أنها وهم من الاوهام ، ومجرد علاقة خاصة بين الضوء وعدسة العين ٠ فالعلماء يقولون لى أشياء كثيرة مزعجة ، مثل أن اللون وهم ، وان القلم الذى أكتب به هذه السطور اشعاع متجمد ، وان المرحوم جدى الاكبر قرد ، الى آخر هذه الاقوال التى يجدر بالرجل العاقل — حتى لو صدقها — أن يتجاهلها كيلا تفسد عليه متعة الحياة ٠

ومن أحب الالوان الى نفسى اللون الاخضر بكل درجاته ، وهى ان كنت لا تأخذ بالك أكثر من عشر درجات ٠ أحبه فى الاشجار العالية السابحة فى ضوء الشمس ، أو المغتسلة بماء المطر ، والاشجار الجميلة التى أوحت للاقدمين بأن يعبدوها كرمز للخصوبة والنماء . واليوم توحى الى بعض المحدثين بأن يقطعوها ويبيعوا أخشابها فى سبيل حفنة من القروش ينفقونها فى شارع الهرم !

وأحبه — اللون الاخضر الجميل — فى الحقول الفسيحة المترامية العامرة بالمحاصيل ، محاولا وأنا أســبح بنظرى فى الخضرة ان أتجاهل ما يتخللها هنا وهناك من بقع صغيرة سوداء لرجال ونساء وأطفال حفاة يسهرون على تلك المحاصيل ٠

واللون الاخضر ما أحلاه على السفرة ، فى صحن ملوخية خضراء يتصاعد منه البخار المحمل برائحة المرق والتقلية ، ادب فيه اللقمة ثم أرفعها فيطلع لى معها عرق طويل أخضر ، لا خلاص منه الا اذا أدرته حول اللقمة فى دوائر جميلة حلزونية خضراء ٠ وما أحلى ذلك التناقض البديع بين اللون الاخضر فى صحن الملوخية ، واللون الأحمر الفاقع فى صحن الدمعة ، ويا حبذا بلون ثالث ابيض ناصع فى تنسيرة كبيرة من صدر فرخة محمرة ٠ والفرخة من فراخ الجمعية طبعا ، حيث أن تذكرى لثمن فرخة السوق كفيل بأن يفسد على متعة الالوان والطعوم ، وأخف منه بكثير ذلك الوجع البسيط الذى أشعر به فى ساقى بسبب وقوفى أربع ساعات فى طابور الجمعية !



واللون الاخضر فى الخس والفجـــل والجرجير والبقدونس ، ولاسيما اذا كان هذا الاخير مخرطا ومفروشا تحت كيلو كباب ، وبشرط أن يكون الذى دفع ثمن هذا الكيلو شخص غيرى ! ولا شك أن لون البقدونس كان أبهج بكثير أيام زمان ، عندما كنا نشترى الكباب بالرطل لا بالكيلو ، وكان ثمن الرطل أقل من عشرة قروش . أما اليوم وقد بلغ سعر الكيلو اربعة جنيهات فكيف يستمتع الانسان بخضرة البقدونس وهو يعلم أن كل قطعة لحم يغيبها فى بطنه يكون قد غيب معها ربع جنيه !!

واللون الاخضر بالطبع فى عيون البنت الحلوة ، كأنك تهيم من خلاله فى عالم أخضر مجهول ، أو تغوص فى أعماق بحيرة سحرية لا قرار لها ، وذلك بالطبع اذا لم تكن قد تزوجت تلك البنت ! فلقد سمعت من بعض الازواج أن خضرة العيون تتغير بشدة بعد الزواج ، والبحيرة السحرية تتحول بقدرة قادر الى بركة راكدة من الميـــاه الآسنة تغطيها طبقة من الطحالب الخضراء !

وبارك الله فى اللون الاخضر أينما وجد !

ورد عليك !

وطبيعى أننى أحب اللون الاحمر أيضا ، ولكن مع بعض التحفظات طبعا . فهو يعتمد فى جماله ـ وبشدة ـ على مكان تواجده ، اذ يبدو فى بعض الاماكن آخر فتنة وجمال ، فى حين يبدو فى أماكن أخرى آخر زفت وقطران !

ما أحلى اللون الاحمر فى حوض ورد بلدى ، لونه الضاحك يملأ قلبك سرورا ، وشذاه يملأ صدرك عطرا . تقطف وردة منه وتقدمها الى حبيبتك ، فتتناولها بأصابع ذات أظافر مخضوبة بنفس اللون الاحمر الفاتن ، وترفعها لترشقها فى شعرها وهى تبتسم لك

بشفتين لا تقلان حمرة ، مع تورد شديد فى الخدين لكيلا يكونا أقل انسجاما مع الموقف الاحمر !

واللون الاحمر فى التفاح الامريكى الفاخر ،وفى الكرز والبرقوق وحبات الرمان ، ألوان طالما استمتعنا بها أيام زمان بكل من البصر والاسنان ! أما اليوم (أنظر الى السعر المعلق فوق التفاح) فالحمد لله الذى أدام علينا نعمة البصر !

غير أن جمال اللون الاحمر يتوقف كما أسلفنا على مكان تواجده، فاذا أنت وضعته لى فوق رأسك فى شكل طربوش من طرابيش زمان فلا تؤاخذنى اذا رأيتنى أضحك ! وبالطبع يتضاعف ضحكى اذا رأيتك واقفا به فى حديقة الحيوان بجانب جبلاية القرود !

وفى غمضة عين يتحول اللون الاحمر المرح الى لون ماسوى حزين، اذا أنت رأيته يتدفق من جرح فى جسم انسان تعس ، سقط تحت قطار حلوان أو دهسه أتوبيس بشرطة ، أو طعنه نشال في الاوتوبيس بسطوة قرن غزال ، أو تعثر فى حفر الرصيف وسقط على خازوق حديدى دقه فى الارض عمال المرافق ، أو اصابته فى أحد الافراح رصاصة طائشة ، وما الى ذلك من مظاهر حياتنا المتحضرة .

وبعد فهذان لونان لا غير من كرنفال الالوان الذى تزخر به الحياة ، واذا شئت فانه يسعدنى أن أحدثك عن كل ألوان الطيف !

****

* أصوات تحت الشمس ! *

من أعماق قلبى المؤمن قلت الحمد لله ، حيث جلست فى الحديقة تحت شمس بلادنا الدافئة ، أمنا الحنون التى قد تختفى وراء السحب بعض الوقت لقضاء حاجاتها الخاصة ، ولكنها لا تلبث أن تشرق علينا من جديد وهى أكثر دفئا وحنانا . ووجدتنى أبتسم فى سخرية آسفة وقد تذكرت اخوتنا الغلابة من سكان أوربا ، الذين يجلسون فى هذه اللحظة وسط أكداس الثلوج ، يرتجفون من البرد

ويتكتكون ، وفى بعض الاحيان يتجمدون ويموتون . ومن هنا فهمت لماذا وصفوا أوربا بأنها « منطقة عمل » ، بمعنى أنها منطقة لايستطيع الانسان فيها أن يجلس مسترخيا مثلى ، بل يجب عليه - لكيلا يموت بردا - أن يجرى ويقفز ويتشقلب ، تلك الحركات التى يبدو أثرها واضحا فى منجزات الحضارة الاوربية الحديثة . ومن ثم فأنا أعتقد أن جو بلادنا أيام أجدادنا الفراعنة كان مختلفا تماما عن جوها اليوم . لابد أنه كان جوا باردا يجعل منها منطقة عمل ، ويغرى الناس بالجرى والقفز والشقلبة . فكيف كان يتاح للانسان المصرى أن يبنى الهرم والمسلات ومعبد الكرنك وأن يخترع الكتابة ويغزو آسيا لو أنه كان يجلس مسترخيا مثلى ؟ ولسبب ما أخذ البرد يخف على مر العصور ويخلى مكانه للحر ، فبدأ أجدادنا المحدثون يكتسبون عادة الاسترخاء فى الشمس ، وعنهم رحمهم الله ورثت هذه العادة .

فى الحديقة أجلس طلبا لمتعة الشمس ومتعة الهدوء معا ، وان كنت أعلم مقدما أن الهدوء الذى هو هدوء مطلب صعب المنال فى عصرنا الحديث . أصوات كثيرة تترامى الى سمعى وأولها ذلك الصوت المنبعث من منزل قريب لطفل يقول واء ، وهو الصوت الذى أوشك أن يكون لحنا مميزا للبيت المصرى المعاصر . ولا يلبث ذلك الصوت أن يهدأ وقد ألقمته أمه ثديا أو كتمت الشغالة نفسه بوسادة، وتسيطر على الحديقة أصوات العصافير . ولقد كنت أحب تلك الاصوات بشدة فيما مضى ، عندما كنت أحسبها همسات حب وغزل وهيام . ثم مرت الايام وأنا أراقبها فتبين لى أنها لا غزل ولا هيام ولا يحزنون ، وانما هى صرخات شخط ونطر ، وشتائم متبادلة ومقذعة فيما يبدو من لهجتها . وتتحول تلك الصرخات الى نوع من الجنون بين عصفورين يتقاتلان ، ويتبادلان أشرس النقرات على غصون الشجر بنية القتل العمد . وهذا صوت تعرفه كل قطط الحديقة وتسعد به ، لما عرفته بالتجربة من أنه قد يكون بشيرا بسقوط أحد العصفورين على الارض صريعا أو مسخسخا ، وما هى الا لحظات حتى يكون بين مخالب القطة وأنيابها . وهذا درس لم تتعلم العصافير



فى الاستفادة منه قط ، ان التعاون والتعاطف فيما بينها أنفع لها بكثير من التناحر والتشاحن الذى لا ينفع أحدا سوى القطط الجائعة .. غير أنه لايجوز لنا بالطبع أن نطالب العصافير بأن تكون أكثر حكمة منا !

وصوت الطفل قد عاد يقول واء ، وغلب عليه صوت آخر من العن الاصوات فى حياتنا العصرية ، وهو صوت الكلاكسات فى الشارع العمومى البعيد عنى لحسن الحظ . كلاكسات مجنونة محمومة قليلة الادب ، أكاد أترجم أصواتها الى شتائم بذيئة يندى لها الجبين حتى لو كان جبينى أنا ! فالسائق المصرى يريد على الدوام أن يكون هو الاسرع والاجدع ، والاسبق والاحدق ، وملعون أبو الجميع ! وبين حين وآخر صوت فرملة حادة طويلة تنتهى فى بعض الاحيان بخبطة جامدة ، فأتخيل سيارة جمرك اسكندرية وقد دفنت فى فانوس نور مضاء فى عز النهار ، وبالقرب منها جمهرة من الناس تتفرج على انسان تعس تنزف منه الدماء حتى الموت فى انتظار سيارة اسعاف لا تأتى ، توطئة لان يغطوه بجريدة يتصدرها مانشيت كبير عن الانضباط فى الشارع المصرى !

ونفس الطفل — أو طفل آخر فى أغلب الظن — يقول واء ، ويعلو عليه فى راديو الجيران صوت مطربة تنشد أغنية سمعتها للمرة الاولى وأنا احفظ جدول الضرب فى المدرسة الابتدائية . وظللت أسمعها بعد ذلك — كل يوم تقريبا وبالرغم منى طبعا — طوال دراستى الثانوية والجامعية . واستمر ذلك بعد أن اشتغلت بالصحافة وتزوجت وخلفت وشاب شعرى ، أى أننى لا يمكن أن أكون قد سمعت تلك الاغنية أقل من عشرين ألف مرة ! فالحمد لله مرة أخرى على أننى مازلت قادرا على أن أستمع اليها فى شمس الحديقة دون أن أنقلب ميتا من شدة الملل — الفنى — أى بالســ...

وطفل ثالث صاح يقول واء ، ورد عليه صوت رجل فى الشارع القريب يخطرنى بأنه يبيع الخص الكبير العال . والخص كما يخيل الى نبات قد « خص » الله به شعب مصر وحده ! واستنادا الى ما أسمع

حولى من صرخات « واء » أعترف بما للخص من قيمة غذائية مؤكدة، وان كان لا يخلو من الآثار الجانبية الضارة ! وصوت ثالث لرجل يقول « بيكيا » ، يريد منى ذلك الرجل سيىء النية أن أبيع له ما عندى من عفش قديم وأجلس فى البيت على البلاط !

وصوت جديد يقتحم كل تلك الاصوات وهو صوت دقات الهون فى مطبخ البيت . وهذا الصوت كان يطربنى بشدة فى ماضى الزمان، لما كان يبشر به من تقلية وملوخية وأكلة هنية من فراخ محمرة أو مشوية ! فالحمد لله مرة أخرى وليست أخيرة ــ على أننى مازلت أستطيع أن أستمتع بالشمس وأنا أعلم أن ذلك الشىء الذى يدقونه فى الهون لا يمكن أن يزيد ــ عقبال أملتك ــ عن أكلة طعمية !

وعصفوران جديدان يصرخان وقطة تجرى كالصاروخ ، وخبطة أخرى أجمد من السابقة على فانوس نور ، وكل الاطفال فى كل البيوت تقول واء ! نعم ان الهدوء كما أسلفنا مطلب صعب المنال فى العصر الحديث ، ولكن الشمس مازالت حلوة، فالحمد لله مرة أخرى على نعمة شمسنا المصرية الخالدة ، وكان الله فى عون اخوتنا الاوربيين الغلابة ، الذين يرتجفون فى هذه اللحظة ويتكتكون ، وسط ثلوج حضاراتهم الباردة التعسة !

****

* الهدوء المفقود ! *

ليالى الصيف الدافئة احب أن أقضيها على سطح البيت ، بعيدا عن الحر الخانق والضجيج المجنون . النسمة الطرية موجودة ، ولكن الهدوء التـــام أمر صعب المنـــال . من بعيد أسمع صوت الكلاكسات الهوجاء فى شارع الهـرم . لانه اذا كان الكلاكس فى كافة البلدان جهازا للتنبيه ساعة الخطر ، فهو هنا فى مصر جهاز للتنبيه طول الوقت الى أن الرجل عنده سيارة .

وصوت طنين حولى ، طنين الناموس طبعا . وهو صـوت كان يزعجنى بشدة أيام زمان ، ولكننى تعودت يوما بعد يوم أن أستقبله

باستسلام فلسفى هادىء ، وربما لا أكون مبالغا اذا قلت انه قد أصبح صوتا اذا غاب عنى افتقده . وعلى مر الايام ألفت الناموس وألفنى ، وصار اذا قرصنى يقرصنى بحنية شديدة ، قرصة صغيرة لزوم عشاء الناموسة ، وسرعان ما تبتعد وفى طنينها رنة اعتذار . لامؤاخذه يا بيه ــ هكذا يقول لى صوتها ــ مقدرش ابات من غير عشا . فماذا يسعنى أن أقول لها سوى : بالهنا والشفا يابنتى ؟

وصوت نباح الكلاب الذى لايمكن أن ينقطع فى حى الهرم ، الكلاب الضالة فى الشوارع والاخرى المربوطة فى الحدائق ، من بعيد تتنابح وتتبادل حوارا فكريا لا ينتهى . وانا بالطبع لاأستطيع الاعتراض على الطبيعة الكلبية ، ولا على طبيعـة النـــاس الذين يتركونها ضالة أو الذين يحبسونها فى الحدائق ، وانما أردت أن أعطيك فكرة عن أحد الاصوات التى أسهر عليها كل يوم ، حيث أجلس على سطح البيت هربا من الضجيج .

وبين الحين والآخر أسمع صوت طلق نارى هنا اوهناك ، وربما كان المطلق رجلا زهق من أحد الكلاب فأراد أن يقتله ، أو خفيرا يطلق الرصاص ليخيف اللصوص ، أو أحد المعازيم فى فرح يريد أن يجامل العروسين فيتسبب فى قتل معزوم آخر ، أو رجلا زهق من زوجته فقرر أن يقتلها ، أو رجلا قرر أن يقتل نفسه بعد أن زهق من حياته فى حى الهرم .

ونقيق الضفادع أيضا بالرغم من أننى لا أسكن بجانب ترعة أو مصرف أو بحيرة ، فاغلب الظن أنها ماسورة مياه قد انفجرت فى أحد الشوارع القريبة . وربما كانت ماسورة مجارى ، فالضفادع كما تعلم نفسها حلوة وترضى بالاقامة فى أى وسط مادام سائلا . واذا كان نقيق الضفادع كما يقال نوعا من الغزل المتبادل فلاشك أن الضفادع ذوقها غريب بعض الشىء ، ولكنه على أى حال ليس أغرب من ذوق بعض الرجال اذا أخذنا فى اعتبارنا أصوات زوجاتهم ــ والعكس صحيح طبعا .

وبالطبع صوت الميكروفونات المنتشرة هنا وهنـــاك ، ووراءها

أصوات لايمكن أن توصف بالجمال ، لرجال يصرون على أن يوصلوا أصواتهم الى العالم أجمع . ومن يومين وصلني صوت واحد من هؤلاء الرجال وهو يعظ الناس ويحدثهم عن آداب الصيام ، وكيف ان الصائم لا يكتمل صيامه الا اذا راض نفسه على احترام الجيران - قالها من وراء ميكروفون عظيم قادر على ازعاج الجيران على مدى كيلو متر مربع !

وبعد فهذه عينات على سبيل المثال لا الحصر للاصوات التى تحاصرنى فى سهرتى ، هناك حيث أجلس على سطح البيت طلبا للنسمة الطرية والهدوء . فيبدو أن الهدوء التسام شيء لايمكن للانسان أن يجده الا فى القبر ، وان كان هذا أمرا مشكوكا فيه بعد أن سكن الناس فى المقابر وادخلوا فيها الراديو والتليفزيون ، وأشرطة الكاسيت المعبأة باغاني المطربين اللي بالي بالك !

****

* عن البحر والحب المفقود ! *

أتاني صوت المطربة الحنون يقول :

- شايف البحر شو كبير ؟ كبر البحر باحبك !

ففاضت نفسى سرورا وقد اعتبرت ذلك الكلام موجها الى ، ومن الذى لا يسعده أن تحبه احدى الاناث حبا بحجم البحر ؟ لا سيما أن ذلك البحر هو بحر بيروت الازرق العريض اللانهائى ، الذى اعتدت أن أجلس أمامه بالساعات فى كازينو صغير نسيت ماذا يسمى ويطل على ما يسمونه بالمسبح العسكرى ، وهو حمام سباحه صناعى انشأوه على الشاطىء فى قلب البحر واحاطوه بالارصفة الصخرية حماية له من الامواج ، فى مياهه يتلاعب اللونان الازرق والاخضر فى تناغم فاتن .

وتواصل المطربة كلامها فتقول :

- شايف السما شو بعيد ! بعد السما باحبك !

فازداد سرورا حتى تنتفخ أوداجى ، وان كنت لا أعرف على وجه التحديد ما هى أوداجى . حب فى حجم البحر والسماء ، أى نعمة يمكن أن يطمع الرجل فيها أكثر من ذلك ؟ ومن السماء تتدفق اشعة الشمس وتغمر المسبح ، حيث تناثرت على الارصفة الصخرية كراسى البحر الطويلة لزوم أخذ حمامات الشمس فى حال من الاسترخاء العسكرى اللذيذ .

- كبر البحر وبعد السما .. باحبك يا حبيبى يا حبيبى .. يا حبيبى .. يا حبيبى باحبك !

وتعقبها لازمة موسيقية شجية دافئة ، لا أشك فى أننا سنسمع الكثير مثلها من الملحن عاصى رحبانى ، حتى بعد أن قررت فيروز أن تنفصل عنه .

- ندهتك أنا .. نترتك أنا .. رسمتك على المشاوير !

يا بختى اذ نادتنى ونترتنى (أى انتظرتنى) ، واذ رسمتنى على المشاوير . والمشاوير اذا صح فهى للبلاغة اللبنانية هى ذكريات الفسح والنزهات ، مثل التسكع فى شارع الحمراء أو على الكورنيش أمام صخرة الروشة التى ينتحر من فوقها المشاق الفاشلون . أو غدوة فوق الجبل قوامها فروج مشوى وبطحة عرق تترنح وسط صحون اللبنة والتبولة ، وغير ذلك من المشاوير اللبنانية البريئة . ولقد يفهم من كلام البنت هنا أننا التقينا وتسرمحنا معا ، وحيث أن شيئا من ذلك لم يحدث فلابد أنها مجرد تهيؤات وأحلام فى الدماغ المحموم للبنت المتيمة .

- يا هم العمر .. يا دمع الزهر .. يا مواسم العصافير !

افواج من العصافير تحلق فوقنا وترفرف وتزقزق ، وامهلنى لحظة حتى أخرج منديلا أمسح به عن رأسى شيئا سقط عليه .

- ما أوسع الغابة .. وسع الغابة قلبى !

فما أسعدك ياواد اذ تتقلب وتتمرغ وتبرطع فى هذا القلب ذى الابعاد الخرافية !

- يا مصور عذابى .. ومصور بقلبى .. شايف البحر شو كبير !

ـ شايفة يا روحي ، شايفة وحياة الله !

ـ كبر البحر وبعد السما ٠٠ باحبك يا حبيبى ٠٠ يا حبيبى ٠٠ يا حبيبى باحبك !

ونفس اللازمة الموسيقية الدافئــة المتموجة ، وغادة حسناء بالبيكينى تهادت نحو أحد الكراسى الطويلة وجلست عليه ٠ من حقيبتها أخرجت زجاجة زيت بللت منها أصــابعها وراحت تدهن كتفيها وذراعيها وما ظهر من بطنها وهو كثير ، ثم فخذيها وركبتيها توطئة لان تتمدد على الكرسى وتسلم للاشعة البنفسجية جسمها الفينيقى الرشيق ٠ وبعد لفتة عابرة نحو الكازينو الذى اجلس فيه أنا وغيرى من عشاق البحر ، أغمضت عينيها وقد اطمانت الى انه لن يكون حماما شمسيا فحسب وانما هو حمام بصرى أيضا ٠

وقالت المطربة :

ـ نترتك سنى ، يا طول السنى ، واسال شجر الجوز !

السنى ان كنت لاتعلم هى الســنين وكنت احب أن أصف لك شجرة الجوز ولكننى للاسف لم ارها اطلاقا ، اذ أننى فى بيروت أكون بعيدا بعض الشئ عن هذا النوع من الاهتمامات النباتية ٠ لكننى أتخيل البنت وهى جالسة فى انتظارى تحت الشجرة المذكورة فتصعب على ، وأرجو الا تكون تلك الشجرة فى عين الرمانة أو حى الشياح وسط قذائف المدافع والرشاشات ، فلست أحب لها أن تصاب بشظية قنبلة سواء كانت ـ القنبلة لا البنت ـ يمينية أو يسارية ، سورية أو فلسطينية ، مسلمة أو مسيحية ٠

ومن شدة الوجد يختنق صوت البنت بكلمات لا أفهمها عن ورق اللوز وعن أنها ـ المسكينة ـ لا تزيد عن كونها دمعة ســـالت فى دربى ، وانها لا تطلب من الحياة شيئا سوى ان أتفضل وأسمح لها بأن تواصل حبى ٠٠

ـ شايف البحر شو كبير !

نعم هو كبير جدا ، هناك حيث يمتد الى ما لا نهاية وراء المسبح العسكرى ٠ وشاب طويل أبيض رياضى الجسم ظهر على الرصيف

الصخرى بالمايوه وتوجه نحو الحسناء النائمة وفي يده زجاجة بيرة، قال لها شيئا ما فهزت رأســها وابتسمت ثم أغمضت عينيها من جديد ٠ ونزل الشاب الى الماء بزجاجة البيرة ، وهناك حيث وقف بين اللونين الازرق والاخضر رفع الزجـــاجة وراح يقربع منها ، ليغسل عن روحه أغلب الظن بعض همومه العسكرية ٠

ـ كبر البحر وبعد السما ٠٠ باحبك يا حبيبى ٠٠ يا حبيبى ٠٠ يا حبيبى باحبك !

ومازال صوت فيروز جميلا دافئـــا بالرغم من الخلفية البعيدة لقنابل عين الرمانة والشياح ، وبالرغم من أنها انفصلت عن زوجها، هم العمر ودمع الزهر ومواسم العصافير ، وما حيلتنا فى قلب واسع وسع الغابة ؟! وبيروت اذا أردت أن تقدم تعريفا مناسبا لها فلن تجد مهما أجهدت ذهنك شيئا تقوله سوى ٠٠ هى بيروت !



* الفصل السادس *



حاجات غريبة ...

* للصبح *

فى المساء ــ الحادية عشرة مساء ــ حين ينتهى ارسال التليفزيون البريطانى والفرنسى والالمانى وغيرها من التليفزيونات المتحضرة ، يبـــدأ التليفزيون المصرى اذاعة فيلم الســـهرة ! وهو فى الغالب فيلم أكل عليه الدهر وشرب ، رآه العواجيز مثلى وهم بالبنطلون القصير ، وطريقة عرضه للحياة لا تتناسب اطلاقا مع شباب اليوم ، فلو أحسنت المذيعة لقالت :

ــ الآن نقدم لكم فيلم السهرة ، ونتمنى لكم سهرة مقرفة !

وأنا أعرف أناسا كثيرين يتفرجون على فيلم السهرة ، وأعترف اننى بالتمعن فيهم وجدت أنهم لا يختلفون عن كثيرا عن رجل يرفض مشاهدة الفيلم مثلى ٠٠ نعم هناك بالطبع بعض الفروق الطفيفة ولكنها لا تجعلهم مختلفين كل الاختلاف عنى ، فأنا الآخر ربما قضـــيت سهرتى فى أشياء أسخف من فيلم السهرة ، اذا كان ممكنا ٠

وفى الاذاعة أسمع بين الحين والآخر صوت المذيعة يقول لى وهو يستعرض برامج السهرة :

ــ وموعدنا فى الساعة الواحدة والربع صباحا مع برنامج كذا !

وهذا يوقعنى فى حيرة تامة ، عندما أتخيل ذلك الانسان الفذ الذى يسهر حتى الواحدة والربع صباحا لكى يسمع برنامجا معينا ٠٠ اذا كان هو ضيف البرنامج فهذا أمر مفهوم ، لكى يستمتع

بصوته وهو يتنحنح ويقـول : فى الواقع ٠ أما اذا كان مستمعا عاديا فهذا شىء لا يدخل فى دماغى بالمرة ٠٠ هذا الانسان ــ أنا واثق من ذلك ــ لا يشبهنى أو يشبهك اطلاقا ، بل هو انسان من نوع آخر تماما ٠

فالانسان العادى اذا سهر لهذه الساعة فلابد أن يكون مشغولا بمهمة خطيرة جدا ، أو ممتعة جدا ، وهو فى الحالتين لا يفكر فى أن يدير الراديو ٠ فلمن تقدم الاذاعة هذا البرنامج ؟ ولماذا تريد الاذاعة من المواطن المصرى ــ وهى ليست اذاعة تجارية ــ أن يسهر معها حتى مطلع الفجر !

للصبح ! ٠٠ تلك هى فلسفة الاعلام عندنا ، كأن النوم المبكر عيب ، واليقظة المبكرة حرام ، وكان المواطن الصالح هو الذى يجب أن يصحو من النوم مصدعا متعبا ويذهب الى عمله وهو يتثاءب ٠٠ وذات صباح أيام كنت أكتب للاذاعة (وهذه بشرفى قصة حقيقية) ذهبت الى الموظف المختص أسأله عن اذن الصرف الخاص بى ، واذن الصرف ــ ان كنت لاتعلم ــ هو الشىء الوحيد الذى من أجله يكتب الناس للاذاعة ٠ وجدت ذلك الموظف (وكان بيننا ــ على فكرة ــ نوع من المحبة) جالسا الى المكتب فى حالة من الاعياء التام ، واضعا كوعه فوق أذون الصرف المكدسة أمامه ، ومســندا رأسه على كفه مغمض العينين ، مانعا اياها ــ رأسه ــ بالعافية من أن تسقط من يده فوق الاذون المذكورة ٠

رثيت له بشدة الا أن شوقى الى اذن الصرف كان أكبر ٠ فربت برقة على كتفه حتى فتح عينيه وبربش نحوى متسائلا عما أريد ٠٠ فأخبرته بحكاية اذن الصرف فقال :

ــ لسه ما جاش ٠٠

وعاود النوم مرة أخرى ٠ وأنا أعرف أن المسكين فى حاجة الى النوم ، الا أننى أنا الآخر فى حاجة الى شراء كيلـــو لحم ٠ فربت على كتفه مرة أخرى ــ بحزم هـــذه المرة ــ فحرك كوعه من فوق الاوراق ليكتسب لرأسه وضـــعا أكثر راحة ، وتحت كوعه الذى

تحرك رأيت أجمل منظر فى الدنيا ·· رأيت اسمى مكتوبا على اذن الصرف ! فلم أربت على كتفه هذه المرة بل لكزته بقوة ، وانتزعت الاذن من تحت كوعه ووضعته أمام عينيه الفائمتين · فلم يجد مفرا من أن يتناول القلم ويشرع فى كتابة البيـانات المطلوبة وهو يتثاءب ·

وأنا اعرف فى هذا الموظف رجلا طيبا ، لا بتاع كده ولا كده ، فلست أجد تفسيرا لسـهره الطويل الا أنه ـ بصفته موظفا فى الاذاعة ـ ظن أنه من الواجب عليه أن يطيع أوامر المذيعات بالاستماع الى البرامج الفلانية فى الساعة الواحدة والربع ·· وللصبح !



* سيدتى الخصيبة ! *

عزيزتى الزوجة المصرية : تحية وسلاما لك ولزوجك العزيز ، ولاولادك الذين أرجو ان يكونوا خمسة فقط · فالطفل الاول شىء مفهوم لان كل أنثى يجب أن يكون لها طفل أول ، تلبية لغريزة الامومة وتحقيقا لوظيفة الانثى الرئيسية وهى المحافظة على النوع (وان كنت عندما أتأمل ذلك النوع أجد صعوبة شديدة فى فهم ضرورة المحافظة عليه !) · والطفل الثانى ماشى ، وكذلك الطفل الثالث · والطفل الرابع والخامس نستطيع ـ بصعوبة شديدة ـ أن نمشيهما علشان خاطر عيونك · أما اذا أنجبت طفلا سادسا فهذه هى اللحظة التى يبدأ الانسان فيها يشك بشدة فى سلامة عقل سيادتك ·

لماذا تريد المرأة ان تنجب طفلا سادسا ؟؟ قد يكون ذلك لانهـا تريد أن تثبت للناس خصوبتها الفذة ، وهى لا فذة ولا حاجة ·· فالقطة تضع ست قطط فى الولادة الواحدة ، والارنبة تضع أكثر من عشرة أرانب ، والذبابة تضع مائة وعشرين الف بيضة ، يموت منها ما يموت ويعيش ما يعيش لكى تهشيه من على وجـــه طفلك

السادس الغلبان ٠

وربما كان الدافع الى الطفل السادس هو أنك تريدين كما يقال أحيانا ـ أن تربطي زوجك اليك وتكبليه بالقيود التي تحول دون فراره منك ٠ وهذا قول ارفضه أنا شخصيا ، اذ أرى أن زوجك التعس مربوط اليك منذ الطفل الاول ، وما برح منذ سنوات وسنوات يدور كالثور حول نفس الساقية ٠

فلا يبقى من الدوافع الى الطفل السادس الا أنك تريدين زيادة عدد الانفار فى بطاقة التموين ، وهذا غير معقول طبعا !

لابد أنك ـ يا سيدتي الخصيبة ـ تقرئين الصحف (على الاقل فى الاوقات التي لاتكونين فيها مشغولة بالولادة) وتعرفين أننا نزيد كل عام مليون طفل جديد ٠ فكيف يسمح لك قلبك الكبير بأن تنجبي طفلا جديدا وتلقى به فى هذا الزحام الخانق ؟ اذا كان طفلك السادس بنتا فأنا أرثى لها بشدة ، عندما أتخيلها محشورة ـ بعد ١٥ سنة ـ فى اتوبيس ١٩٩٥ !

فاذا كان المحروس ولدا فيا حسرتى عليه ، اذ يحشر هو الاخر فى فصل به أكثر من مائة تلميذ ، يذهب اليه كالجحش ، ويعود منه كالحمار ، لايسمع شيئا من المدرس ولا استفاد شيئا سوى مزيد من الشتائم البذيئة وتقطيع هدومه فى خناقات العيال ! فاذا فتح الله عليه وواصل تعليمه حتى أخذ الشهادة الجامعية وتوظف فما أظن أن ماهيته سوف تكفى لشراء شيء أكثر من كيلو لحمة وكيلو بامية وخمس ليمونات !

ولست أذكر من الذى قال (وأغلب الظن أنه أنا !) ان السيدة التى تحب أولادها حقا هى تلك التى ترفض انجابهم ! وهناك يا سيدتي الخصيبة هوايات كثيرة أخرى فى الحياة ، فيمكنك دائما ان تفتحى التليفزيون وامرك لله ، ويمكنك أن تلعبى الكتشينة أو الدومينو ، وهذا الى جانب شغل التريكو وحل الكلمات المتقاطعة وما الى ذلك من الاعمال التى لا تؤدى الى الولادة ٠٠ وختاما لهذه الرسالة الموجزة لا أجد ما أقوله سوى : اختشى على دمك شوية !!

● موسم وجع البطن ●

فى جوف الليل سمعت صوتا غير بعيد يقول متوجعا :

ـ آه ! آه ؟

فقلت لنفسى انه شخص مؤرق يعانى صداعا ٠ ثم عاد الصوت يقول بنبرة الم أشد :

ـ آه ٠٠ آه ٠٠ اه ياني !

فقلت انها فيما يبدو حالة مصران اعور أو التهاب فى المرارة ٠ ومن حيث اجلس فى الظلام على سطح البيت نظرت الى نافذة بعيدة مضيئة ، وفيها رأيت شبحا لشاب يروح ويجيء فى الحجرة كالحيوان الحبيس وفى يده كتاب كبير ، فادركت انها لاحالة مرارة ولا مصران ، وانما حالة عادية من حالات المذاكرة فى موسم الامتحان اللعين ! يده اليمنى تمسك الكتاب ويده اليسرى مرفوعة فوق دماغه لكى تشد شعره وتدلك فروة رأسه فى محاولة مستميتة لتنشيط خلايا المخ المعذب ٠

فاحسست بوجع فى بطني ، يسرى من قولوني الصاعد الى قولوني المستعرض الى الآخر الهابط ، ويتوغل بعد ذلك فى أمعائى الدقيقة ، مع احتمال كبير لان يكون العكس هو الصحيح ٠ اذ أشعر بمدى المعاناة التى يجتازها ذلك الشاب وآلاف غيره ، فى تلك المحاولة لان يحشروا فى أمخاخهم أكبر قدر من المعلومات فى أقل وقت ممكن ٠ مثل وزة يزغطونها ويحشون بطنها بحبات الذرة حتى توشك المسكينة ان تنفجر ٠ ولذلك نسمع فى بعض الاحيان عن حالات من القيء تعترى الطالب فى ليلة الامتحان ، وتوشك بحكم العدوى ان تعتريني انا ٠

وذلك لان المقررات طويلة ، شوية ٠ والكتب كثيرة ، شوية ٠ والكثير منها لايصرف للطالب الا قبل الامتحان ، بشوية ٠ واذا وصف بعضها بالرداءة وسوء التعبير والتخلف ، يبقى شوية ، والطلبة فى الفصول والمدرجات أكثر من اللازم ، شوية ٠ ولذلك



كانت فرصة الاستفادة من شرح المدرس أو الاستاذ صعبة شوية . والدروس الخصوصية كما تعلم ، غالية شوية . فما الغرابة فى أن ترى شابا يشد شعره فى جوف الليل ويقول آه يانى ، هو كل ده شوية ؟!

وتأتى ساعة وضع الامتحان فأكاد أسمع صوت واحد من واضعيها يقول لصاحبه وهو يرشف من فنجان قهوة سادة :

- تفتكر الطلبة ح تركز فى المذاكرة على ايه يا محمود بيه !

فيتفكر الآخر لحظة وهو يرشف من فنجان قهوة سكر زيادة ثم يقول :

- على الاجزاء المهمة طبعا .

فيقول الاول وعلى شفتيه أبتسامة تربوية محنكة :

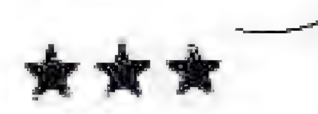
- نبقى نجيب لهم الاسئلة فى ايه ؟

فيجيبه الثانى بابتسامة أكثر حنكة :

- ودى عاوزه سؤال يا أحمد بيه ؟!

وتوضع الاسئلة فى الاجزاء غير المهمة ، ومن بعيد يرتفع صوت الحيوان الحبيس قائلا آه ، غير عالم - المسكين - أنه يضيع وقته فى مراجعة الاجزاء المهمة ! ومرة أخرى تتقلص قوالينى وتوجعنى بطنى ، ولكننى اقول لنفسى انه لا يأس مع الحيـــاة . صحيح ان المسألة كما اسلفنا متعبة شوية ، ولكننى اعتقد انه عندما يتم

انفتاحنا على الاساليب التربوية والثقافية للعالم المتحضر ، بقـــدر انفتاحنا على سياراته وسجائره وكازوزته ، فان الحال ســـوف يتحسن باذن الله .. شوية شوية !



***

الحرف المظلوم !

هناك اسباب كثيرة للخلاف بين العرب واسرائيل ، وربما كان من بينها أنهم - العرب - لا يعرفون أسماء قادة اسرائيل . فقد ظلوا سنوات عديدة يختلفون مع رئيس اسرائيلى يســمونه بن غوريون ، غير عالمين أن اسمه الحقيقى بن جـــوريون . ثم بدأوا يختلفون مع رئيسة اسرائيلية اسمها غولدا ماير ، غير عالمين - أو متجاهلين - أن اسمها جولدا لا غولدا . وبالامس كنت أقرأ جريدة عربية فظننت مدى لحظة ان مستر بيجين قد استقال من رئاسة الوزارة ، الى أن تذكرت أن مستر « بيغن » هو الاسم الذى يطلقه العرب على مستر بيجين .

ولقد سألت بعض الكتاب والمثقفين العـــرب الذين قابلتهم عن السر فى هذا الموقف العدائى من حرف الجيم ، فقالوا لى انه ليس موجودا فى اللغة العربية ، وان الجيم الوحيدة التى يعترفون بها هى الجيم المعطشة ، كما فى جاكتة وبيجامة وأباجورة . وعلى هذا الاساس - عبر اجيال متعاقبة من الترجمة والتأليف والاعـلام - عكفوا على تحويل كل حرف جيم يقابلونه الى حرف غين ، بقصـــد القضاء المبرم على هذا الحرف الدخيل على اللغة العربية .

فى الجغرافيا تحولت يوجوسلافيا - على ســبيل المثـال - الى يوغوسلافيا ، وتحولت عاصمتها من بلجراد الى بلغراد . وامتلأت الاطالس بكلمات مثل بلغاريا والبرتغال ولينينغراد ، فى حين أن أهل تلك الدول ينطقونها ويكتبونها بالجيم لا بالغين ، وربما كانوا لا يعرفون حرف الغين اصلا . فلماذا وصلوا الى انجلترا - وكانت

وقتها امبراطورية عظمى ـ خافوا ان يحـــولوها الى « انقلترا » واكتفوا بتحويلها ـ توقيرا لها وتخلصا من حــرف الجيم ـ الى انكلترا ، كما حولوا الانجليز الى انكليز ! ثم حطوا همهم فى بعض مدنها مثل جلاسجو وبرمنجهام ، فحولوهما الى غلاسغو وبرمنغهام ! وقصرها الملكى حولوه من بكنجهام الى بكنغهام ، وتوقيتها حولوه من جرينتش الى غرينتش ، وساعتها الشهيرة حولوها من بج بن الى بغ بن !

وفى التاريخ والادب تحول ديجول الى ديغول ، وجاريبالدى الى غاريبالدى ، وجوته الى غوته ، وجوركى الى غــوركى ، ولست واثقا ـ للصراحة ـ اذا كان أهل الهند ينطقون غاندى بالجيم او بالغين . وحتى فى السينما تحول جارى كوبر الى غـارى كوبر ، وكلارك جابل الى كلارك غابل ، وحتى الوحش الرهيب كنج كونج سخطوه الى كنغ كونغ !

وقد قلت لهؤلاء المثقفين العرب : لنفرض ياسادة ان حـــرف الجيم غير المعطشة غير موجود فى اللغة العربية (وانا شـــخصيا لست واثقا من ذلك تماما) فما العيب فى ان نثرى لغتنا بحرف جديد نضيفه اليها ؟!

بأى حق ياسادة تحكمون بالاعدام على حرف موجود ومتداول نطقا وكتابة ـ فى جميع اللغات العالمية ؟! ولماذا اخترتم حرف الغين بالذات لكى تضعوه مكان الجيم ، لنجد انفسنا امام تلك الكلمات المضحكة مثل غريغورى بيك وغريتا غاربو ؟!

فلما ســمعوا تلك الاسئلة صمتوا ووجموا وبلموا ، وبعضهم شحب وجهه وابتلع ريقه بصعوبة ، ثم غيروا مجرى الحـديث الى موضوعات ليس فيها حرف جيم غير معطشة .

وانا بالطبع لا اقول هذا الكلام تعصبا للجيم غير المعطشـــة او كراهية للجيم المعطشة ، وانما لاننى مصاب طول عمرى بعادة قد تكون ردينة وهى اننى أحب أن أسمى الاشياء بأسمائها .

ويا عزيزى المثقف العربى أرجو الا تــكون قد زعلت منى ، فانا لا أهدف الا لخيرك .. اتفضل « سيكارة » و « كنغ » سايز كمان !

***

صــورة صوتية

من ابغض الاشياء الى نفسى الضوضاء ، ومن العجيب اننى اسعى اليها بنفسى بين حين وآخر كنوع من التغيير . وهكذا وجــدتنى بالامس جالسا فى مقهى عام كبير ، وسط دوامة من الاصوات التى لو عايشتها لمدة طويلة لطلعت روحى ، الا ان معـــاشرتها لنصف ساعة لا تخلو من الطرافة .. صوت الــزهر فى مائة طاولة وهو يرطم بالخشب ويتدخرج عليه ، وصوت رزع مئات « القشاطات فى خانات الطاولة ، وصرخات انتصار هنا وهناك .

وصوت الجرسونات وهم يصيحـــون قائلين (متريو) ، تلك الكلمة التى يبدو انها كل ما تبقى لنا من الثقافة الاغريقية .

وصوت عشرات الملاعق وهى تدور فى الاكواب لتذيب السكر فى الشاى وصوت فرشاة ماسحى الاحذية وهى تدق على الصندوق الخشبى لتلفت أنظار الزبائن . فاذا نودى على واحد منهم وأقعى أمام الزبون (واضعا على البلاط سيجارته المشتعلة) فهناك بعد لحظات صوت طرقة جديدة تنبه الزبون لينزل احدى قدميه عن الصندوق ويرفع أخرى ، وهكذا حتى تأتى الذروة عندما يتناول الماسح تلك القطعة الطويلة من القمـــاش ويرزعها على الحذاء فتحدث طرقعة عاليـــة ، توطئة لان يضغط بها على الحذاء وهـــو يلمعه فتسمع له صريرا كأنه طفل يصرخ .

وبائع اليانصيب يصرخ مؤكدا ان السحب بكرة ، ونداء الباعة سميط وبيض وتسالى يا لب وأخبار وأهرام وجمهورية ! وصوت



كركرة الماء فى شيشة قريبة ، وصوت شخشخة الفكة من جيب مريلة الجرسونات وضحكات كثيرة مجنونة على نكت بائخة ! .

وكل ذلك بالطبع على خلفية فذة من اصوات الميدان الذى يطل عليه المقهى ، صوت زمجرة آلاف الموتورات وزعيق آلاف الكلاكسات الغاضبة ، وقرقعة الموتوسيكلات ورنين اجراس الدرجات ، وتلك النقرات المعدنية المتلاحقة لجرس الترام ، وصوت سنجة الترولل وقد انخلعت وراحت تتخبط بين الاسلاك وتحدث شررا . وليس نادرا أن تسـمع طرقعة لحوافر بغل مسرع بالعربة الكارو على الاسفلت .

وهذه الخلفية لها خلفيــة اخرى هى عشرات الراديوهات المفتوحة ، فلو أن معى جهاز تسجيل لسجلت هذه السيمفونية النادرة وكسبت مليون جنيه من بيعها لاذاعات العواصم الهادئة التى لا يخطر لها امكان توافر كل هذا القدر من الضجيج فى مكان واحد .

وبهذه الذخيرة القاتلة من الضجيج حملت نفسى وعدت الى بيتى ، فى حديقتى الصغيرة الهادئة جلست ، ومن أعماق قلبى هتفت أقول: الحمد لله على نعمة الهدوء !



• يا عطارين دلونى •

دعـوة النـاس كثيرا الى الاقلال من أكل اللحم . يخلصنا من اذلال صاحب السمو الجزار وصاحب الجلالة تاجر الماشية ، ووصفت لربة البيت العاقلة عدة اصناف من الفول تغنيها واسرتها عن أكل اللحم كل يوم .. ولكن يبدو انني عندما وجهت كلامى الى ربة البيت العاقلة كنت أتخيل كائنا وهميا لا وجود له ! فما زال الناس ياكلون اللحم بنفس الشراهة ، وما زال الجزار يبرطع ويضرب بالجوز فى ساحة الاسعار ، فارتفع سعر كيلو البتلو فى أسبوع واحد من ٢٨٠ قرشا الى ثلاثة جنيهات ، ولسه طبعا ياما نشوف .. ولم يشأ تاجر الفراخ أن يكون أعبط من تاجر الماشية ، فرفع سعر كيلو الفراخ المجمدة من ١٢٠ قرشا الى ١٤٠ قرشا .. وهى بالطبع نفس الفرخة التى تباع فى الجمعية بجنيه وخمسة قروش . فيبدو أن فراخ الجمعية لها قدرة سحرية على أن تطير – وهى مذبوحة – من ثلاجة الجمعية الى ثلاجات البقالين !

وازاء هذه الشراهة اللحمية بدأ الشـك يتسرب الى نفسى فى نظرية التطور التى تقول ان الانسـان اصله قرد . فالقـرد كما أعلم حيوان نباتى لا يقـرب اللحم مكتفيا بالنباتات والفـول السودانى ، فكيف انجب هذا الانسان الشره الذى لايشـبع من اللحم أبدا ؟ . وأرجع فأقول أن الامر ليس مسـتحيلا ، وأن الله قادر على أن يخلق من ظهر القرد العالم انسانا فاسدا !

وبشىء من التفكير – العقلم غالبا – قلت لنفسى أن هذا الارتفاع الجنونى فى الاسعار قد يكون راجعا الى الاحجام الغريبة التى وصلت اليها أوراق البنكنوت . فقد كانت الورقة من فئة العشرة جنيهات فى حجم كف اليد ، ثم انسخطت بقدرة قادر الى نصف حجمهـا تقريبا . وظهرت الورقة ذات المائة جنيه فاذا بها لاتزيد فى حجمها على العشرة جنيهات ! وربما كان هذا «الكشكشان» فى حجم الاوراق المالية قد خفض فى نفس الوقت من قوتهـا الشرائية ، وبدأت

الاسعار ترتفع بهذا الشكل الجنونى ٠ وانا اعرف ان هذه الفكرة لن تعجب رجال الاقتصاد ، ولكنها مجرد اجتهاد برىء من ناحيتى

وقد سألت نفسى عن السبب الذى من اجـــله انكمش حجم البنكنوت بهذا الشكل الغريب ، فقالت لى فى تسرعها المعهود :

ــ ح يكون ليه يانبيه ٠ ٠لازم فيه ازمة ورق ٠٠

فصدقتها كعادتى وسكت على مضض ، وان كنت لا أعرف على وجه اليقين ما هو المضض ، ثم مرت الايام واذا بى أفاجأ بتمدد غريب فى حجم الورقة ذات الخمسة وعشرين قرشـــا ، بحيث أصبح ربع الجنيه فى حجم العشرة جنيهات والمائة جنيه ! فوضعت تلك الورقة الجديدة أمام [illegible] نفسى وقلت لها ساخرا :

ــ اذا كان السبب هو أزمة الورق ٠٠ ليه الورقة دى كبرت كده يا نبيهة ؟!

فاحمر وجهها ــ نفسى ــ وكانت هى التى سكتت هذه المرة على مضض ٠ وازاء هذه اللخبطة العجيبة فى فلســـــفة البنكنوت رايت أن اذهب الى حى العطارين ، فالعطارين وحدهم ــ اذا صدق المثل ــ هم الذين يستطيعون ان يدلونى على أصل الحـــكاية ٠ واخترت اجدع عطار هناك وعرضت عليه مشكلتى فراح يتأملنى نحوا من دقيقة كأننى رجل من المريخ ، ثم بدأ صدره يهتز بضحك مكتوم توطئة لان يقول :

ــ هاو أو هم هاى !

فانصرفت مكسوفا مدلدلا ، وأدركت أن أحدا لن يستطيع أبدا أن يشفينى من حيرتى ، ولا حتى العطارين ٠

* الفصل السابع *



أشياء شخصية ...

* عبد الوهاب وأنـا ! *

أنا

صدقت الموسوعة العربية الميسرة التى تقول أنه قد ولد سنة ١٩١٠ ، فانا اليوم أهنئه بعيد ميلاده السبعين ، حبيبى الموسيقار الدكتور اللواء محمد عبد الوهاب !

واذا قلت حبيبى ، فانا اعنيها ، لانه كان أول فنان يداعب مشاعرى ويزغزغ عواطفى بشدة وأنا دون العاشرة من عمرى — اذ أن عواطفى قد استيقظت بدرى شوية ·

وكان أول فنان نجح فى أن يبكينى ، أو « ينزح الدموع من مقلتى» على حد قوله فى قصيدة الهوى والشباب · صحيح أننى بكيت فيما بعد على أنغام خواجة ألمانى اسمه بتهوفن ، وخواجه آخر روسى اسمه تشايكوفسكى ،وثالث نرويجى اسمه جريج ، ولكن الانسان المصرى ينفعل أكثر بالطبع عندما يبكى بالعربى ·

وكان عبد الوهاب فى ذلك الوقت شابا فى عنفوانه ، كان صاحب حنجرة نادرة تدخل فى قلوب الناس ولا تخرج منها ، بالاضافة الى سوالفه الطويلة وطربوشه المعووج بزاوية ٤٥ درجة ، وشهرته العريضة بوصفه مطرب الملوك والامراء ، فى حين أنه فى الحقيقة مطرب الشعب ، لان الملوك والامراء قلما يفهمون شيئا فى الموسيقى · أى أنه يملك كافة المقومات التى تجعل منه انسانا سعيدا مرحا بحبوحا خلى البال ، جديرا بأن يتغنى باكثر الالحان فرحا وطربا وفرفشة ·

والغريب أن الذى حـــدث هو العكس ، فهو ما أن يمسك العود ويشرع فى التلحين حتى يبدأ فى النواح والتعديد مع شيء من اللطم المنتظم على سبيل الايقاع ، ومن حنجرته الذهبية تتدفق أكثر الالحان حزنا ومرارة واحباطا ، بسبب حبيب سافل هجره وخانه ولاف بغيره وفقع مرارته ، وتركه وحيدا مسكينا وحاله عدم ، ساهرا فى الظلام يعد النجوم فى الليل لما خلى ·

وكنت أنا المراهق الصغير أسمع تلك الاشياء فانفعل بها بشدة ، وابكى رثاء لعبد الوهاب ولنفسى · وكان هو بالطبع عكس ذلك تماما، يرتع ويمرح ويبرطع وسط العشرات من قلوب العذارى وأمهاتهن ، بينما أكتفى — أنا الطالب المفلس المسكين — بأن أجلس فى حجرتى المقفلة وفى يدى منديل كبير أجفف به دموع الحب ·

نعم كانت تلك الالحان المغرقة فى الحزن شيئا غريبا حقا من هذا الشاب الناجح ، فاغلب الظن أنه لم يكن يعبر بها عن عواطفه الخاصة بقدر ما يعبر عن عواطف كاتب الاغنية المسكين الذى كان — مثلى — يحب كثيرا ويطول قليلا ، والذى كان يضطر فى كثير من الاحيان الى أن يبيع الاغنية بمبلغ خمسين قرشا فقط ! صحيح أن الخمسين قرشا فى تلك الايام السعيدة كانت تحتوى على أكثر من عشرين زوج حمام ، ولكن ليس بالحمام وحده يحيا الانسان ·

والموسوعة سالفة الذكر تقول ان عبد الوهاب قدم « أحدث نهضة موسيقية عظيمة ، وسار على نهجه فى التلحين والغنـــاء جمهرة الفنانين » · وهذا صحيح تماما وأن أزعج بعض المتعصبين لسيد درويش ، الذين يعتقدون أن الانسان يجب أن يكون اما «محمداوى» أو « سيداوى » على وزن أهلاوى وزملكاوى ، مع أن الاثنين حلوين كما تقول « المطربة » صباح !

نعم لا أحد يستطيع ان ينكر على عبد الوهاب عبقريته التلحينية فى مجال الموسيقى العربية ، وما أشك فى أنه كان يمكن أن يكون موسيقارا عالميا لو أنه ولد فى فيينا بدلا من باب الشعرية ! وفى الوقت نفسه لا يجوز لنا أن ننسى عبقريته الحنجرية ، فبغير تلك الحنجرة الفذة كيف كان يتاح له أن يؤدى كل تلك الالحان الصعبة



المعقدة ؟؟ لولا تلك الحنجرة لاضطر الى أن يكتفى بالتلحين لغيره من المطربين ، وأن يفصل لهم الالحان على مقاس حناجرهم ، وقل على فن الغناء السلام ! فالحناجر ـ التى هى حناجر ـ لم توجد كما نعلم جميعا الا عند عبد الوهاب وأم كلثوم . ولذلك قلما نسمع اليوم فى مجال الغناء العربى شيئا لافتا للنظر ، والسبب الرئيسى لذلك (كما قال نجيب محفوظ فى مشوار حياته) هو أزمة الحناجر .

والآن ونحن فى عصر الانفتاح على العالم أحب أن أتساءل : لماذا لا نحاول أن نجرب الحناجر المستوردة ؟ ان فى امكاننا بالطبع أن نستحضر واحد خواجة « تينور » من فرنسا ، وخواجاية «سوبرانو» من ايطاليا ، ولا بأس أن ندفع لهما أجرهما بالفرنك والليرة ..

وحيث أن هذا اجراء لا يخلو من الصعوبة فلماذا لا يحـــاول عبد الوهاب أن ينتفع مؤقتا بما عندنا من الاصوات « الاوبرالية » المصرية التى تلعلع بين الحين والآخر فى عواصم أوربا ، بينمـــا تعيش هنا مهملة مكتومة تلك الكتمة الازلية الابدية !! نعم ان تجربة بليغ حمدى مع عفاف راضى لم تحقق النجاح المتوقع من هذا الصوت الاوبرالى الجميل ، ولكن الغلطة بالطبع غلطة بليغ . فما معنى أن يأخذ الملحن صوتا من أصوات الاوبرا لكى يغرقه فى تلك الدوامة من تعاريج الغناء العربى ؟

ومرة أخرى أقول لعبد الوهاب ـ من قلبى ـ كل سنة وأنت طيب وعقبال مائة وخمسين سنة ، ومرة أخرى أرجو أن تكون الموسوعة صادقة فى تحديد العام الذى ولد فيه !

★★★

● الرجــل والفيروس ●

من صميم أنفى ـ أعنى قلبى ـ أعلن احتقارى للعلم الحديث ، الذى حطم الذرة وصنع سفن الفضاء ، وهبط بالانسان على القمر والمريخ ، ومع ذلك يقف عاجزا هذا العجز الشائن أمام ذلك الكائن

الطفيل المهين ، فيروس الانفلونزا !

بسببه قضيت أسبوعا كاملا من الزفت والقطران ، ما بين عطس وسعال وخلاف ذلك . وحدثت لحرارتى حالة جنون ، أقيسها مرة فاجدها ٣٨ ، واقيسها بعد ساعة فأجدها ٣٩ ، وبعد ساعة أخرى أجدها ٤٠ ، ثم تبدأ فى النزول الى ٣٨ ، ثم الى ٣٦ ، ثم تبدأ فى الارتفاع ثانيا ، وهكذا طول النهار طالعة نازلة كأننى أضع فى فمى أسانسيرا بدل الترمومتر !

وأنا عندى مبدأ .. ألا أذهب الى الدكتور الا اذا شعرت بأننى سأموت ، ليعطينى دواء ناجعا ينقذنى من الموت ، أو دواء خاطئا يساعدنى عليه . فالطبيب دائما يطلب منى أن أقول آه ، وأنا اقولها فى اليوم مائة مرة ولكن بغير ملعقة مدسوسة فى حلقى . كما أننى أحمل هم يد الطبيب التى يضعها على صدرى وينقر عليها باليد الاخرى ، فهى دائما فى الشتاء باردة كقطعة كاساتا ، وفى الصيف ساخنة مثل شريحة شاورمة .

ومرة وحرارتى ٤١ كنت نائما كالقتيل ، أرى فى المنام أننى راكب أتوبيس ١٠٤ ، ثم أرانى واقفا فى طابور الجمعية ، ثم أجدنى أمام التليفزيون أتفرج على أحد المسلسلات ، وما الى ذلك من الكوابيس التى تتناسب مع درجة الحرارة سالفة الذكر .

وفجأة ـ هكذا يحكى لى أهل البيت ـ فتحت عينى وبربشت بهما حينا ثم انتفضت قائما من السرير ، واتجهت الى باب البلكونة المقفل، مترنحا كأننى قد شربت زجاجة ويسكى بغير ثلج ولا صودا . وحاولت أن أفتح الباب فمنعونى ، وسألونى عن الغرض من فتحه فقلت بكبرياء :

ـ أتأخرت على الشغل !

فقالوا لى أن هذه عملية خاطئة للاسباب التالية :

أولا : ان باب البلكونة ليس من الفتحات التى يمكن أن تؤدى بالرجل المحترم الى مقر عمله .

ثانيا : أن الذهاب الى العمل بالبيجامة ليس من الامور المستحبة لا سيما اذا كان عند الرجل بيجامتان لا غير ، واحدة عليه والاخرى

عند المكوجى ، والنهاردة الاثنين . فاذا عاد من العمل فسوف يكون عليه أن يغسل البيجامة ويجلس ساعتين ـ فى انتظار أن تجف ـ عاريا يتكتك .

ثالثا : اذا كان الرجل مريضا مثلى فسوف تؤدى به هذه المغامرة الى أن يكون أكثر عرضة للذهاب الى الطبيب ، بل ربما اضطر الى استدعائه الى المنزل .

وقد كانت هذه الملاحظة الاخيرة هى التى صرفتنى عن الذهاب الى العمل ، حتى من باب البيت لا البلكونة . فوفقا لما أسمع عن التسعيرة المعاصرة للزيارات المنزلية فى هذه الايام السعيدة ، لا أظن أنه سوف يتبقى فى جيبى بعد دفع الفيزيتة ما يفى بمصاريف الجنازة . وعندئذ يضطرون الى وضعى فى ثلاجة حتى أول الشهر ، وأنا لا أحب البرد حتى وأنا ميت .

ومرة أخرى أعلن احتقارى للعلم الحديث ، الذى يشغل نفسه بالقمر والمريخ ويتناسى ميكروبا فى أنفى .

***

● خفاش تحت الاضــواء ! ●

دعيت كثيرا للظهور فى التليفزيون لكى أدردش مع هذا المذيع أو تلك المذيعة ، وكنت دائما أعتذر بحجة فكاهية هى أننى أخشى على المتفرجات من الفتنة ! فاذا ألحوا على قلت لهم الحقيقة وهى أننى مصاب بداء خفاشى لا حيلة لى فيه ، داء الخوف الشديد من الاضواء حين تسلط على ، ومن عيون الناس وهى ترقب كل حركة من حركاتى، دعك من أذانهم المرهفة لكى تسمع كل حرف اقوله . وهذا طبعا بالاضافة الى أننى لكى أظهر فى التليفزيون يجب أن افصل بدلة جديدة على مستوى الموقف ، وهذا شىء يتنافى تماما مع كل مبادئى الاقتصادية ..

فلما كان صباح الاحد الماضى وقرأت اسمى فى الصحف بين

الفنانين الذين تفضل السيد الرئيس ومنحهم شهادات التقدير ، ولعلمى أن المسألة سوف تذاع فى التليفزيون · ركبنى ذعر شديد وتلبشت تلبشا تاما · (والتلبش لعلم القارىء غير المصرى هو شىء يشبه الشلل) ·

قالت لى نفسى كانت دائما أمارة بالسوء :

ـ ماتروحش ! اعمل عيان ! شوف لك أى حاجة ! ·

فأعجبنى كلامها مدى لحظة ثم ما لبثت أن انتبهت للامر فصفعتها صفعة شديدة وأنا أقول :

ـ الا ترين يا نفسى أن هذا يكون من ناحيتى منتهى العقوق والجحود ونكران الجميل والجليطة وقلة الذوق والادب ؟

فاحمر وجهها ـ نفسى ـ من الكسوف وسكتت ·

وجاء المساء فوجدتنى جالسا فى المكان المخصص لنا بقاعة سيد درويش ، منتظرا أن ينادى على اسمى وأنا ميت فى جلدى · على خشبة المسرح رأيت نحوا من عشر قصارى زرع ، ورأتها معى نفسى فقالت لى ساخرة :

ـ ح توقع كام واحدة منهم باذن الله وأنت فايت ؟!

فقال لى عقلى ان خمسا منها يعتبر عددا معقولا جدا · ثم انتبهت لرداءة الفكرة فقلت لنفسى وأنا أصفعها من جديد :

ـ موش ح أوقع ولا واحدة يا قليلة الادب !

وفعلا صعدت الى المسرح ـ حين نودى على اسمى ـ وتوجهت الى المنصة الرئيسية دون أن أصطدم بأى من أصص الزهر ، وتشرفت بمصافحة السيد الرئيس وباستلام شهادة التقدير · ثم قطعت رحلة العودة والنزول من على المسرح بنفس النجاح · صحيح اننى تهت حينا عن مقعدى ولكننى عثرت عليه بمساعدة بعض فاعلى الخير ·

ولما كانت هناك فئة من المكرمين قد أخذت مع الشهادة ألف جنيه، فقد صدق الكوميديان سعيد صالح حين أتانى صوته من وصف روائى وهو يقول :

ـ ألف مبروك ·· وعقبال الشهادة الكبيرة !

* الفصل الثامن *



الناحية الجغرافية...

صوت

* الناس والمطر *

رذاذ المطر على زجاج النافذة يطربنى ، ومنظر انزلاقه على الزجـــاج فى تلك الخيوط الطويلة المتعرجة يســـعدنى ، حيث أجلس فى حجرتى المغلقة بجانب المدفأة المشتعلة .

وصوته على أوراق الشجر الظامئة ، يغسلها ويحيل لونهـــا الباهت المترب الى لون اخضر لامع مثل الزمرد ، أو مثل عيون زبيدة ثروت بعد أن تقبض القسط الثالث من أجرها عن تمثيل فيلم لحسن الامام .

وصوته ـ فى خيالى ـ على سقف سيارة كاديلاك موحولة فى شارع صلاح سالم ، متناغما مع صوت عجلات السيارة وهى تدور وسط الأوحال على الفاضي وتعجز عن أن تسير ، وعلى صاحبها المسكين تضيع صفقة بمليون جنيه .

وصوته ـ فى خيالى برضه ـ على شمسية زرقاء بها زهور حمراء ، مرفوعة فوق رأس أنثى حســـناء لكى تحمى باروكتها من البلل ، وقطرات من المطر تتساقط على بطنها المنتفخ بطفل لا لزوم له .

غير أن هذا الصوت لا يلبث أن يتخذ رنة حزينة عندما أسمعه على سطح من الصفيح لكوخ تعس فى هذا الحقل أو تلك الخرابة ، وخرسوب من الماء يتساقط من ثقب فى السطح على لحاف كائن بشري نائم ، اذا كان الكائن ذو السقف المثقوب يملك لحافا . وهذا

الى ما قد ينتهى اليه الامر من سقوط الكوخ كله على من فيه . فتمتزج مياه الامطار بدموع الحزانى ، مشوبة بلمســـة حمراء من الدماء السائلة .

وصوته على مظلات الاوتوبيس التى تكدس تحتها آلاف من البشر فى انتظار أوتوبيس لا يأتى ، والماء ينزلق على كيس تمسكه احدى الموظفات ويتسلل اليه لكى يتلف ما فيه من خيوط التريكو .

وصوته على حقائب التلاميذ المرفوعة فوق رؤوس العيال ، كالنمل يسيرون على الرصيف وهم خارجون من المدرســـة ، يتزحلقون ويتكعبلون فى عشرات الحفر المليئة بالماء ، والماء يتسرب الى جوف الحقائب ويغرق الكتب والكراسات فيسيح منهج الجغرافيـــا فى منهج حساب المثلثات والتربية الوطنية .

وصوته على آلاف الجوالات المرصوصة فى العراء فى شونة القمح ، يكاد القمح أن يتحول بفعل الماء الى بليلة لا ينقصها الا السكر .

وصوته على برنيطة عسكرى المرور الذى لا يستطيع أن يفارق موقعه مهما اشتد المطر . وهى الفرصة التى انتهزها لكى اطالب بصرف المكافآت السخية لهؤلاء الرجال الابطال الذين لولاهم لوقف المرور نهائيا بدلا مما هو واقف مؤقتا .

وصوت المطر كما أسلفنا يطربنى أحيانا ، ويحزننى أحيانا . فهل أجد مع واحد منكم منديلا (نظيفا طبعا) أجفف به دموع الطرب ودموع الحزن ، هنا حيث اجلس فى حجرتى المقفلة بجانب المدفأة المشتعلة ؟

***

* خواطر جغرافية *

من الاشياء التى تزعجنى عندما أطلع الى السرير فى منتصف الليل لكى انام ، اننى اتذكر أن الرجل الامريكى يكون فى هذه اللحظة جالسا مع زوجته وأولاده الى مائدة الافطار !؟ وأنا لا اعرف بماذا يفطر الرجل الامريكى ، وأستبعد طبعا أن يكون المسكين قادرا



على استحضار صحن لذيذ من الفول المدمس بالزيت والليمون ، وليس هذا هو المهم · المهم أننى فى اللحظة التى آوى فيها الى الفراش يكون هو يتهيأ للخروج الى عمله ، وذلك لاننى أقيم فى خط طول ثلاثين فى حين يقيم هو فى خطوط الطول من مائة الى مائة وثلاثين ·

والعكس صحيح بالنسبة للرجل الصينى او اليابانى ، الذى عندما أصحو أنا فى الصباح واستقبل اليوم الجديد (ربنا يفوته على خير) يكون قد بدأ يتثاءب ويتجه الى الفراش لكى ينام بعد يوم من العمل الشاق فى صنع السيارات والراديوهات والاقلام الرصاص ، وذلك مرة أخرى بسبب خطوط الطول سالفة الذكر ·

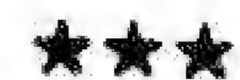
لذلك لا أحب خطوط الطول ، بسبب هذا التفريق المضحك الذى تصنعه بين الانسان وأخيه · ولا أظن أننى أحب خطوط العرض ايضا ، اذ أجلس فى الحديقة مستمتعا بشمس مصر الساطعة الازلية (الابدية باذن الله) فأتخيل رجلا انجليزيا تعسا ماشيا يتكتك من البرد فى شارع أوكسفورد ، أو سكوتلنديا أتعس منه جالســا تحت الثلوج يعزف موسيقى القرب ويبذل جهودا فاشلة فى منع الرياح القاسية من أن تطير عن ركبتيه جونلته الاسكوتش الكاروهات

ودعك بالطبع من الرجل السويدى الذى مرت عليه ساعة وهو عاجز ـ من شدة البرد ـ عن أن يستقر على الطريقة التى ينتحر بها · فاذا ارتفعنا الى الشمال أكثر من ذلك لوجدنا أنفسنا أمام مأساة بشرية مجسمة ، مأساة الرجل الاسكيمو الغلبان الذى يعيش فى بيت صنعت جدرانه من الثلوج ، وهو بالطبع لا يستطيع أن يشعل النار حتى لا يسيح البيت ويتطربق على دماغه ودماغ زوجته وأولاده · كل هذا وأنا جالس تحت شمس مصر الساطعة الازلية ·

وينحدر خيالى الى الجنوب فأرى رجلا أفريقيا ماشيا على خط الاستواء ، جلده الاسود لامع من شدة العرق تحت الشمس الاستوائية القاسية · فينزل الغلبان الى النهر ليبترد ، غير عالم أن على الشاطىء تمساحا يرقبه بعين نصف مفتوحة ويفكر فى أن ينزل الى النهر ليأكله · ولكنه لحسن الحظ لا ينزل ، لانه هو الآخر شبه دائخ من شدة الحر ·

ثم يتجه ذهنى الى ناحية الجنوب الشرقى من هذا الكوكب اللذيذ فأجد نفسى فى قارة استراليا ، وسرب من البنات الاستراليات اللطيفات يتهادين على البلاج بالمايوهات البيكينى ، وبالقرب منهن أنثى كانجارو تتقافز وفى جيبها ثلاثة اطفال صـــغار كأنها أنثى مصرية . وقد يبدو لك منظر المايوه البيكينى غريبا فى شهر ديسمبر ولكنك بذلك تنسى أحكام خطوط العرض . فشهر ديسمبر الذى هو عندنا عز الشتاء هو عندهم ـ لانهم فى النصف الجنوبى من كوكب الارض ـ عز الصيف ! وبينما تلبسين أنت يا سيدتى المصرية أثقل ما عندك من الفساتين (كستور أو صوف انجليزى انتى وشطارتك) تكون أختك الاسترالية مفرهدة من شدة الحر تلتمس شيئا من البرودة بين احضان ـ ـ يابخته ـ موج المحيط الهادى .

فأنت بذلك ترين أننى معــذور فى أننى لا أحب خطوط الطول والعرض المنتشرة على سطح هذا الكوكب ، وهذا اذا افترضنا أننى أحب الكوكب نفسه .



● سياحة على الخــريطة ! ●

حيث اننى اكسل من ان اقوم بسياحة حول العالم ـ اكسل وافلس طبعا ! ـ فانه يحلو لى بين حين وآخر ان اقوم بعملية قد تبدو لك عبيطة بعض الشىء ، ولكنها فى الحقيقة مسلية ومفيدة أيضا .

الاطلس افتحه أمامى واتوه فى كرنفال الالوان التى يمثل كل لون منها دولة أو بحرا أو سهلا أو صحراء . واول ما تتلمســه عينى بالطبع ، هو وطنى العزيز ، والشريط الطويل الاخضر المتلوى من اسوان الى البحر المتوسط ، أخضر الا انه ضيق يكاد يتـــوه وسط رمال الصحارى الجرداء التى تحاصره من الجانبين ، واكاد اراه « يبظبظ » مثل عش النمل ، بالاربعين مليونا الذين يأويهم .



وأتابع نهر النيل جنوبا الى الســودان الحبيب ، امتــدادنا الطبيعى الذى عدنا اليه اخيرا ، بعد ان هجرناه دهرا طويلا ونحن نطارد الاحلام فى قارة آسيا . ولعــله من الظلم لنا ان نقــول « نطارد » ، اذ كنا نتفرج على غيرنا وهو يطارد تلك الاحلام !

واقف على شاطىء البحر الاحمر واغوص بخيــالى فى اعماقه الحافلة بكل ما ندر ولذ وطاب من الاسماك ، تسبح وتتلبط فى حرية تامة ولا تجــد من يصيدها ، ونحن فى مصر نشترى كيلو السمك بجنيه ونص وكيلو الجنبرى بسبعة ، وسبحان من يعطى البحر الاحمر للى بلا ودان !

وارى بجانبى سمكة قرش فافزع الى شاطىء الخريطة ، ويرتفع بصرى الى رقعة صغيرة خضراء على البحر المتوسط اسمها لبنان . خضراء على الخريطة والاحرى بهم أن يرســموها حمــراء بلون انهار الدماء التى سالت فيها طوال عامين ، مزيجا مشئوما من دماء المسلمين والمسيحيين وكل ملة ودين !

فأغادر لبنان وسط خرائب بيروت ، وأنزل فى البحر المتوسط بقارب صغير . عن بعد أرى بوارج حاملات الاسطول الســادس تجوب البحر كالدواهى .. ومن تحتى فى أعماق الماء أشعر بطنين للغواصات حاملة الصواريخ الذرية ، تلك الصواريخ التى قد تنطلق فى لحظة جنون بشرى وتنهال على روسيا ، وفى جحيمها تتطاير اشلاء

موسكو لتهوى فوق ليننجراد !

ويتحسن الموقف بعض الشيء عندما تقذفني امواج البحر الى شاطيء ايطاليا ، حيث استمتع بصحن من الاسباجيتي تقـــدمه لى جرسونة حسناء مثل داليدا ايام كنت اراها تتبختر فى شـــارع خمارويه بشبرا . ثم ارتفع شمالا الى سويسرا حيث انزلق حينا على الجليد وانا استمتع بالتهام صباع شوكولاته نســـلة باللوز والبندق والزبيب . ومن سويسرا الى فرنسا ، وانت تعرف بماذا سوف استمتع هناك !

واقفز عبر بحر المانش الى انجلترا ولندن ، وتحت الثـــلوج والامطار والضباب اللعين ارى ان الحياة لن تطيب لى هناك ، خاصة اننى لن أقرأ جريدة التايمز . فاقرر أن أعبر الاطلنطى الى امريكا فى طائرة هذه المرة كى اتحاشى ذلك الطنين المزعج للغواصات ، واكثرها فى هذه الناحية غواصات روسية مستعدة بدورها لان تحول ناطحات السحاب الامريكية الى ناطحات أرض !

وعلى خريطة الولايات المتحدة أرى خمسين ولاية كل منهـــا فى حجم وطنى العزيز أو أكبر ، وسكان أجدع واحدة فيها لايزيد على خمسة ملايين ، ان لم ينقص ، فى مقـــابل الاربعين مليونا الذين ينحشرون فى شريطنا الضيق الاخضر .

ازاء هذه الضخامة الخرافية أشعر بالفزع .. فانحدر الى امريكا الجنوبية ، وهناك استمتع بفنجان قهوة من البن البرازيلى الذى ليس مخلوطا بالسودانى ، محاولا أن اتجاهل صوت طلقات الرصاص الوافدة من أحدى الدول القريبة وقد وقع فيها انقلاب عســـكرى جديد .

فاتجه بطائرتى غربا الى المحيط الهادى لكى اهبط فى جزيرة رأيتها فى الافلام كثيرا هى هونو لولو .. وبنت لذيذة ســـمراء تغطى خصرها بخيوط القش تستقبلنى لتضع حول عنقى عقـــدا من الزهور ، اشم عطرها فاريد ان المسها ولكنها تنفلت منى وتجرى

ضاحكة كالغزال الشارد بين اشجار جوز الهند ، وارجو ان يكون هناك فعلا – فى هونولولو – اشجار جوز هند !

ثم القى بنفسى فى المحيط الهادى ، سباحة هذه المرة ، وطظ فى الغواصات ! .. وغير بعيد منى ارى حـــوت العنبر الازرق يبرز على سطح الماء أكبر من أى غواصة ، ومن فتحة فى رأسه ترتفـــع نافورة هائلة من الهواء الساخن المكتوم فى صـــدره منذ حين . لا أخاف منه لاننى أعرف انه لا يأكل سوى الجنبرى ، والجنبرى فى المحيط الهادى ارخص منه بكثير فى سوق التوفيقية !

ولا ابرح أسبح غربا (وما افظع ذلك الطنين الذى لاينقطـــع تحتى !) حتى اصل الى استراليا . وهناك لا يسعفنى خيالى بشىء سوى أنثى حيوان الكنغر وهى تقافز بأولادها الذين يطلون من ذلك الكيس المضحك فى بطنها .

واحس اننى تعبت فاقرر العودة الى ارض الوطن . انزل فى أسوان وارى بحيرة ناصر ، التى أقرأ فى الصحف أن أسماكها قد توحشت ، لانها لاتجد هى الاخرى من يصيدها . فاقول لنفسى : ما أعجبنا من شعب ، عندنا كل هذه الثروة السمكية ونشكو من الفقر البروتينى ! .. نشترى الكيلو بجنيه ونص ، وفى امكاننا ان نشتريه بشلن .. لايلزمنا فى سبيل ذلك شىء سوى ان نشترى كمية من شباك الصيد والسنارات !

ومن أسوان اركب قطار الصعيد الى القاهرة ، داعيا الا يـــكون هذا هو يوم خروجه عن الخط .

وفى القاهرة أسير متكعبلا فى الحفر والمطبات .. قافزا عبر بحيرات المواسير المتفجرة ، وأرجو أن أعود الى بيتى سالما لكى أقدم هذا التقرير الموجز عن رحلتى !

★★★

* خــواطر باردة *

من وراء زجاج النافذة نظرت الى الاشجار المرتعدة فى الحديقة وقلت لنفسى مانيش فايدة يا واد ، جاء الشتاء يعنى جاء . لاننى لا أحب الشتاء ، ويجعلنى أشعر بأن الطبيعة تكرهنى وتعادينى وتتعمد اذلالى .

ـ لا تجلس فى الحديقة ياولد ! (هكذا أسمع صوت الطبيعة يكلمنى) سوف تطير فى الفضاءأمام هوائى ! أتشعر كم هو بارد وقارس وقاس هوائى ؟ ها ها ، وانت لسه شفت حاجة ! طوبة قادمة فى الطريق ومن خلفها أمشير وأحلق شنبى (ليس غريبا أن يكون لطبيعة من هذا النوع شنب) ان فات عليك الشستا من غير التهاب رئوى !

والاشجار مازالت ترتعد فى الحديقة وراء الزجاج المغلق ، والحمد لله أن عندى زجاجا يغلق . فهناك كما أسمع بيوت كثيرة غير ذات زجاج .

فاذا خرجت الى الطريق فانى أحسد من قلبى أولاد البلد ، على التلفيعة التى تلفرؤوسهم وتغطى آذانهم ، هازئين منى أنا الافندى الذى يسير عارى الرأس مرتعدا ، ونظراتهم الساخرة تقول اتفلق ! حد قالك تعمل أفندى ؟

وفى البلاد الاوربية الباردة أراهم فى الصور وقد لفوا رؤوسهم باغطية مماثلة من الصوف ـ الا أنهــا أرقى بالطبع تكنولوجيا ـ لا يبرز منها سوى أنوفهم لزوم التنفس . فيبدو اننى أنا وحدى ـ لاننى لا خواجــة ولا ابن بلد ـ الذى كتب على أن أسير عارى الرأس مرتعدا لكى أثبت أننى أفندى محترم !

وجو رمادى اللون كئيب يخيم على الدنيا ويهيىء لى مدى حين أننى فى لندن ، ثم يقع بصرى على الطابور الطويل الواقف أمام موقع بيع الكستور فاذكر من فورى أننى هنا . والكستور كما يقولون خفيف الى درجة الشفافية ، فليتنى أشترى منه مترين

وأركب ستارا للنافذة كى لا أرى الاشــجار التعسة المرتعدة فى الحديقة .

والسحب التى فى السماء تتحول من اللون الرمادى الكئيب الى اللون الاسود الرهيب ، وتبدأ فى رش الارض ومن عليها برذاذ خفيف . وفجأة تدوى فى الســماء طرقات القدر مثــل مدخل السيمفونية الخامسة لبيتهوفن ، وسرعان ما يتحول رذاذ الماء الى حنفيات مفتوحة ، مع أن السماء أعلى بكثير من الشــقق التى فى أدوار العمارات العليا !

فيبدأ طابور الكستور فى الهرولة للاحتماء بمداخل العمارات القريبة مضحيا بالكستور الذى سوف يشتريه فى سبيل الدبلان الذى يرتديه ! وأنا أيضا أجرى مثل الجميع لاحمى بدلتى اليتيمة، وفى مدخل العمارة أقف وسط عشرين رجلا وعشرين سيدة نصفهن حوامل !

ثم أرى تاكسيا سياحيا قد انحشر فى الزحام غير بعيد فأهرع اليه وبحزم افتح بابه واركب .

ـ جنيه !

هكذا يقول لى السائق بمجرد أن أركب ، فاقول له وأنا أرفع حاجب السخرية الايسر بعد تجفيفه من ماء المطر :

ـ انت لسه عرفت أنا رايح فين ؟

ـ رايح فين ؟

ـ رايح الهرم .

ـ يبقوا اتنين جنيه !

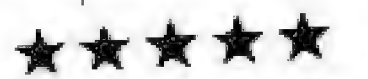
معلهش ـ أقول لنفسى ـ بلاش آكل لحمة الاســـبوع ده ! وبالتاكسى أعود الى البيت ، بعد ساعة كاملة بالطبع ، ما بين صفوف التروليات المتعطلة وقد حدث فى أســلاكها بسبب المطر ماس كهربائى وبين مئات الســيارات الواقفة خلف عربة كارو غرقت بحصانها فى مطب تغطيه المياه .

وفى البيت أشعل المدفاة وأجلس مثل طفل أعادوه الى أبويه ،

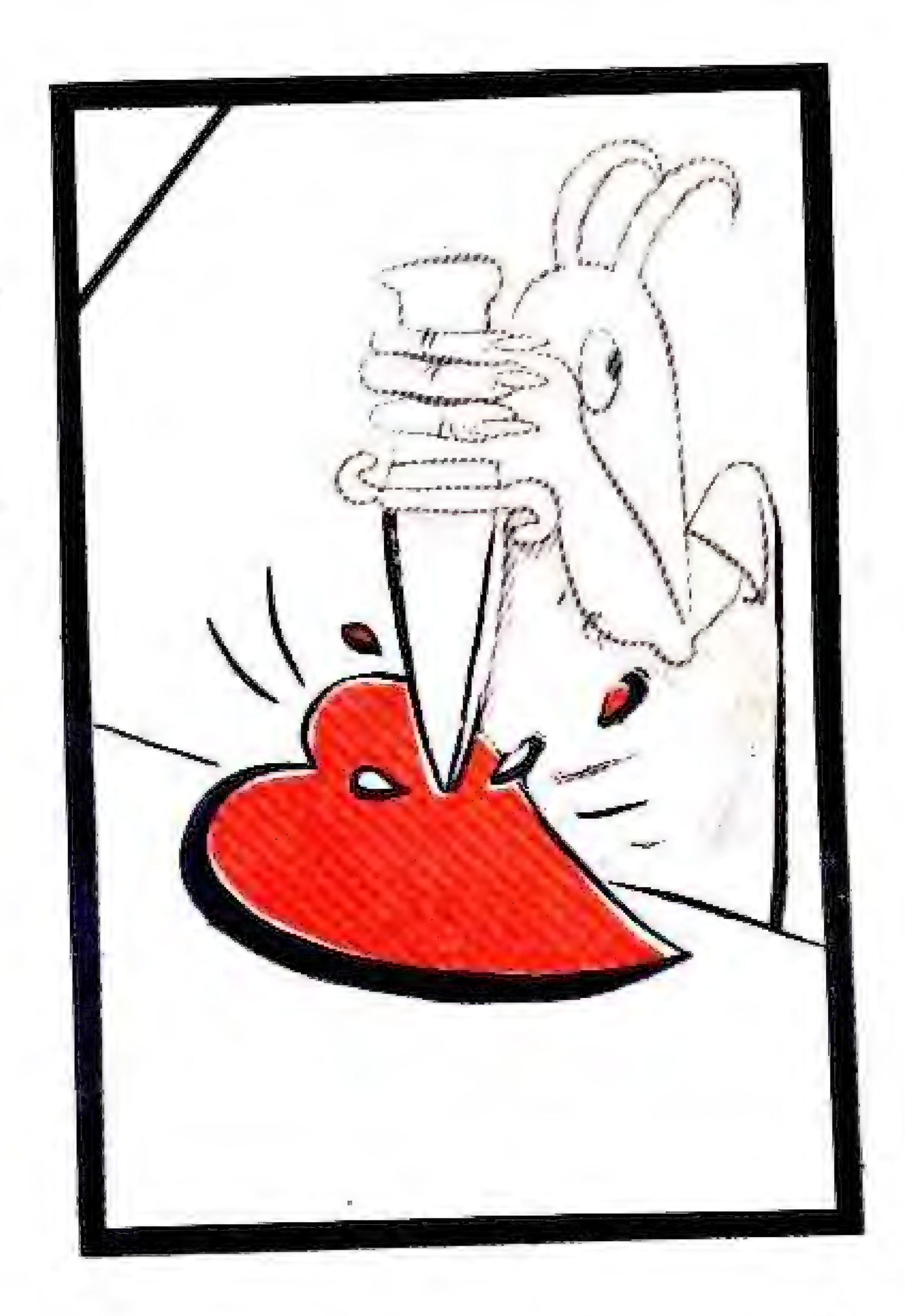
والحمد لله على أن عندى مدفأة أشعلها • ما أظن أننى كنت أشعر بالسعادة وأنا سائر فى الشارع الجانبى أتصيد الاغصان الجافة المتخلفة عن تقليم أسوار الحدائق لكى أشعل بها نارا •

وذات يوم بعيد كنت اذا أشعلت المدفأة شويت عليها بعض حبات من أبى فروة ، ولكن اين لى اليوم بتلك الحبات وأنا الذى سوف أمتنع اسبوعا عن اللحم ؟

وقطرات المطر تدق على زجاج النافذة المغلق ، وتنزلق عليه مثل دموع امرأة ثكلى ، مع صوت أنين الاشجار التائه وسط الرياح العاوية • فلست أدرى ما مدى صدق الروائى الانجليزى الذى قال : اذا جاء الشتاء فليس الربيع ببعيد • ففى بعض أيام الشتاء القارسة أجدنى أتساءل فى مرارة : ترى هل سوف يأتى ربيع جديد حقا ؟؟



* الفصل التاسع *



أشياء محزنة ...

في لحظة حزن وخجـل

لن أرثى يوسف السباعى ، فقد ظفـر برثاء كافة الكتاب والمفكرين ، أنصاره فى الراى وخصومه على السواء ، وبرثاء الالوف التى خرجت باكية تسير فى جنازته ، وبرثاء الملايين التى استمتعت طوال أربعين عاما بقراءة رواياته أو مشاهداتها فى الافلام • وانما أحب أن أسجل الاحساس الذى أثاره هذا الحادث فى نفسى ، وهو احساس الخجل الشديد من انتمائى الى الجنس البشرى !

ان الحيوان لا يقتل الا ليأكل ، أى لكى لا يموت هو نفسه جوعا ، لم نســمع قط بحيوان تربص لآخر وانقض عليه فقتله لمجرد أن يستمتع بقتله وبرائحة دمه المسفوك • وفى دنيا الانسان قد نرى رجلا يقتل الاخر فى سورة غضب ، أو يقتله لثأر قديم ، أو حتى يقتله ليسرق نقوده ، وكلها جرائم ذات سبب محدد مفهوم • أما هذه الجريمة فتمثل فى نظرى نوعا فذا من الحقارة التى لا يقدر عليها لا الحيوان ولا الانسان العادى ، جريمة القتل لمجرد القتل — او لمجرد أن يثبت القاتل قدرته على القتل •

ومما يزيد من بشاعة هذه الجريمة نوع الضحية التى اختارها القاتل لكى ينفس فيها عن مكنون حقارته • فمن فى الدنيا يمكن أن تطاوعه نفسه على قتل يوسف السباعى ؟ كيف يختـار القاتل من بين الرجال جميعا رجلا من أكثرهم أدبا وذوقا وسماحة وظرفا ،

ومن أكثرهم عطاء فى امتاع الملايين ، دعك من أنه من أكثرهم وسامة وبريقا وسحرا شخصيا ؟

حتى فى سورة الغضب ما كنت لأقتل يوسف السباعى ، وحتى لو كان بينى وبينه ثأر قديم • فأنا بقتله لا أرتكب جريمة القتـل فحسب ، وانما ارتكب جريمة تدمير وضيع لظـاهرة طبيعية جميلة خلقها الله ، تماما كما لو أننى رأيت غابة عظيمة من الاشــجار العملاقة فأشعلت فيها النار وجلست أسـتمتع بمنظـرها وهى تحترق وتموت •

انه رجل سافل من نوع فريد ، ذلك الذى هان عليه أن يدمر تلك الظاهرة الطبيعية ، وأسفل منه بالطبع ذلك الذى حرضه وغسل مخه وموله وزوده بالمسدس والقنبلة والديناميت • وأنا شخصيا لا أعرف من يكون ذلك الرجل ، وهل هو رجل واحد أو أكثر ، ولكننى أعرف أنه رمز مجسم لكل ما هو ردئ وفاسد وعفن فى الطبيعة البشرية •

هكذا أجدنى مرة أخرى أسجل احساسى بالخجل من انتمائى الى الجنس البشرى ، اللهم الا اذا كنا فى هذه الايام وفى هذه المنطقة نتعامل مع جنس جديد لا هو بشرى ولا هو حيوانى ! ومن ثم أعتقد أن الوقت قد حان لكى نراجع علاقاتنا مع الاجناس المختلفة وان نكف عن التشبه بالأم التى تحدث عنها المثل الشعبى واصفا اياها بأنها « سابت ابنها يعيط وراحت ترضع ابن الجيران » •



* جريمة العصـفور الوحـيد ! *

كثيرا ما يتساءل ضيوفنا الجدد عندما يسـمعون تلك الزقزقة العالية قائلين :

— عندكم عصافير ؟

فاقول لهم مصححا :



ـ عندنا عصفور ٠

فلا يصدقون أن كل هذه الضجة صادرة عن عصفور واحد ، ولكن هذا هو الحاصل ٠ فهذا عصفور من طراز فذ فريد ، وأرجو أن يكون بين القراء خبير عصافير يفتيني فى أمره بعد أن يقرأ هـــذه السطور ٠

هو عصفور صغير أخضر اللون معقوف المنقار مثل الببغاوات ، اشتريته لاولادى منذ عدة سنوات عندما كانوا صغارا ٠ وكان معه عندما اشتريته عصفورة انثى تؤنس وحدته ، ولكنها للاسف طبت ميته لسبب لا أعرفه بعد وصولها عندنا بأيام ٠ اشـــتبهنا فى انه قتلها ولكننا استبعدنا الفكرة ، وقال الاولاد :

ـ نجيب له عصفورة تانية ٠

وشرحوا لى ماخفى عنى من أسرار الطبيعة العصفورية ، كيف ان الوحدة هى أعدى أعداء العصافير ، وان هذا العصفور اذا لم نبادر بأحضار وليفة له فسوف يموت بعد أيام قليلة كمدا ومللا وتعاسة وقهرا ٠

فماذا أفعل سوى أن اشترى العصفورة ؟

قضيا أياما يتناجيان باعذب الالحان ، ويتبادلان القبلات الملتهبة، ويرتكبان أفعالا لو بدرت من بشرين لسميت فاضحة وادت بهما الى سجن مثل هذا القفص ٠ وكان ملحقـــا بالقفص صــــندوق خشبى يمكنهما أن يدخلاه من فتحة صغيرة ويفعـــلان فيه ما طاب لهمـــا ، ولكن يبدو اننى قد اشــــتريت عصفورين مصـــابين بالميـــول الاستعراضية

وفى ذات يوم دخلت العصفورة فى ذلك الصندوق وغابت أكثر من اللازم فأدركنا انها أما تبيض وأما قد باضت فعلا ، وان المســألة قد تحتاج (وآدى اللى انا عامل حســابه) الى قفص أكبر وأوسع لزوم الجيل الجديد ٠ ثم خرجت العصفورة ودخل العصفور بدلها وغاب فى جوف الصندوق ، وحيث أن العصـفور لا يبيض فلا يبقى الا أن يـرقد على البيض ٠ والرقاد على البيض فى حدود فهمى من

واجب الانثى لا الذكر ، ولكن هذا كما قلت لك عصفور من نوع خاص

ومرت الايام وبرز من فتحة الصندوق عصفوران صغيران لذيذان ، سرعان ما عرفا مكان الغذاء فى القفص فاتجها اليه وهات يا أكل وزقزقة ، أسرة سعيدة تأكل وتشرب وتنام على حسابى ، لا طلبت منها ثمن الحبوب ولا أيجار القفص ، والكرم هبة من الله

غير أن تلك السعادة لم يكن مقدرا لها أن تدوم ، اذ بدأ العصفور وزوجته لسبب يتناقران بشدة ، ويتشاتمان بعد أن كانا يتناجيان، وخيمت على سماء القفص سحابة كئيبة سوداء · فلو ان العصفورة تستطيع أن تفتح باب القفص لقلت انها قد خرجت من وراء زوجها فغضب منها ، أو أنها قد فتحته أثناء نوم زوجها لضيف غريب ، ولكن هذا مستحيل طبعا · فلا تفسير للامر اذن سوى انها حالة من الملل الزوجى الذى يبدو انه لا يصيب بنى آدم فحسب وانما بنى عصفور أيضا

وفى ذات صباح صحوت لكى ارى هذا المنظر الذى اقشعر له بدنى ، منظر ثلاث جثث للزوجة وطفليها على أرض القفص ، بينما العصفور الزوج عاكف على التهام الحبوب مع الزقزقة المرحة · فأخرجت الجثث وفحصتها بدقة ، فتأكد لى وللاخرين انهم قد ماتوا قتلا ، بدليل ريشهم المنتوف والاصابات المنتشرة فىأجسامهم تحت الدماء المتجمدة ، العصفور الوغد قد قتل زوجته وولديه ووقف سعيدا يغنى ·

ماذا أفعل ؟ اننى لا أستطيع بالطبع أن أحاكم العصافير وفقا للمعايير البشرية ،فأحكم على العصفور بالاعدام بتهمة القتل العمد- هو عصفور لا انسان ، وكل مافى الامر انه قد زهق من اسرته فقام بتصفيتها ووقف سعيدا يزقزق · وأولادى عادوا يقولون :

ـ نجيب له عصفورة تانية !

فاقسمت أن هذا لن يكون ، وان هذا العصفور قد حكم على نفسه بالسجن الانفرادى المؤبد ·

ـ واذا مات ؟

ـ فى ستين داهية !

ولكنه لم يمت · شهرا بعد شهر وعاما بعد عام وهو واقف وحده يزقزق ويغرد ولا تخطر له ادنى فكرة عن الموت · بيدى اضع له الحبوب والماء كل صباح ، مثل اى سجان يقدم الطعام لاى سجين · كاد ان يتم من وقت جريمته الى يومنا هذا ثمانى سنوات ، وهو واقف يغرد بنغمات مختلفة واصوات متباينة ، حتى ليخيل الى ان ارواح أسرته الميتة قد تقمصته وعاشت معه فى نفس البدن · قالوا لى أن الوحدة أعدى اعداء العصافير ، وهذا عصفور لم تزده الوحدة الا قوة وصحة وانتعاشا واقبالا على الحياة ·

والذى يغيظنى انه لا يعرف انه سجين ، فالذى يعرف ما هو السجن يجب ان يكون قد ذاق طعم الحرية · ولكن هذا العصفور قد ولد فى قفص شبيه بهذا ، وانتقل منه الى هذا القفص ، فتوهم ان هذه هى الحياة الطبيعية للعصفور · يخطر لى فى بعض الاحيان ان افتح له القفص واتركه يطير ورزقه على الله ،ولكننى أعرف أن جناحيه اللذين لم يجربا الطيران لن يحملاه أكثر من عدة امتار · يسقط بعدها على الارض ، فتنقض عليه للفور قطة جائعة ، أو تهاجمه جيوش النمل مثلما تفعل بكل حيوان عاجز · وبشرفى وشرفك ، صارف عليه لغاية النهاردة مالا يمكن أن يقل عن خمسين جنيها أكل!

★★★

● مصارعة الديوك ●

لا أظن ان احدا من قرائى الطيبين قد سبق له ان شاهد مصارعة الديوك ، فهذا شىء يتنافى مع ما أعرف عن طبيعتهم الرحيمة · ولا انا شاهدت تلك المصارعة أو احب ان أشاهدها ، وان كنت قد سمعت وصفا لها من بعض معارفى هواة الملاقات الدموية · اذ يحضرون ديكين قويين مدربين على القتال ، ويضعونهما فى حلبة

القتال وجها لوجه ، أو قل منقارا لمنقار ومخلبا لمخلب · وبشيء من الاستثارة المدروسة يجعلونهما يبدآن المعركة الدموية الشرسة التى لا تنتهى الا بموت أحد الديكين أو كليهما ·

وحول الديكين يتزاحم المتفرجون وهم يهللون ويصرخون ، هذا يشجع الديك الابيض وهذا يشجع الديك الاسود ، كل على حسب مزاجه · تماما كما يحدث فى مباراة الاهلى والزمالك مع فارق هام هو ان أيا من الناديين لا يستهدف قتل الآخر · صحيح انه قد تقع بعض البونيات والشلاليت والاصابات ، ولكنها لاتحتاج فى الغالب الى علاج اكثر من واحد وعشرين يوما ·

القتال يدور والدماء تسيل على جسم الديك الابيض فتحوله الى أحمر بلون عرفه ،ودماء مشابهة تنتشر على ريش الديك الاسود مثل خرزات حمراء فى ثوب ساتان اسود · ومنظر الدماء يثير فى نفوس المتفرجين نشوة عارمة ، وصوت صراخهم المجنون يصل الى عنان السماء ·

والرهان قد بدأ بالطبع من قبل بدء المعركة ، هذا يراهن بمبلغ كذا على الديك الابيض ، وذاك يراهن بمبلغ كيت على الديك الاسود · أى ان المسألة ليست مجرد تسلية بمشاهدة المعركة واستمتاع بمنظر الدماء وانما مقامرة وتجارة لها تقاليدها الدموية الخاصة ·

وصياح هستيرى مجنون بين المتفرجين عندما ينجح الديك الابيض فى ان يفقأ عين الديك الاسود ، واصوات تقول له :

ـ عفارم عليك ··· أقلع له الثانية !

وفى تلك اللحظة يبدأون فى رفع سعر الرهان على الديك الابيض، اذ انخفضت اسهم الديك الاسود بعد ان صار ديكا أعور · غير انه يثبت للناس انه ليس من الديوك التى تيأس بسبب فقدها للعين اليسرى ، وبعينه اليمنى يتصيد فى عنق الديك الابيض نقطة مكشوفة يمسكه منها فيرفعه الى أعلى ويلقى به أرضا · وهذا بالطبع يؤدى من فوره الى مضاعفة الرهان على الديك الاسود بالرغم من انه أعور ·

غير ان الديك الابيض لايلبث ان ينهض من سقطته كأنه مزود بزنبرك ، ويواصل المعركة وكأن شيئا لم يكن · وتمر الدقائق حتى تصبح الحلبة بركة من الدماء ، ومن الريش المنتوف ما بين أبيض واسود ، وحتى يوشك الديكان ان يصبحا عاريين مثل فراخ الجمعية والناس تهلل وتتمايل كأنهم فى حلقة ذكر ، والرهان يرتفع ويرتفع حتى يصل الى مبالغ خرافية ·

ورجل طيب رحيم يصيح بالقوم قائلا :

ـ يا ناس حرام عليكم ! أوقفوا هذه المجزرة !

فيردون عليه قائلين :

ـ اسكت يا سيد ! لاصوت يعلو على صوت المعركة !

والديكان يتنافران والقتال دوار ، والمتفرجون يصرخون ويهللون ويراهنون ·

ولذلك رنت فى اذنى كلمة السلام شجية مطربة ، بعد ثلاثين عاما من صوت طلقات الرصاص · وربك قادر على أن يحولنى الى انسان بعد ان عشت زمنا طويلا مجرد ديك من ديوك الرهان · دمائى لاتبرح تقطر فتتحول قطراتها الى فصوص من العقيق والياقوت الاحمر فى جيوب المقامرين !

★★★

❋ رجل فى محنة ❋

ـ حرامى ! حرامى !

صرخة تدوى بين حين وآخر فى الشارع القاهرى ، وللفور تدب فى الشارع حركة غريبة مفاجئة ، ويتحول من شارع الى ما يشبه مباراة فى رياضة الجرى السريع ·

يتصدر المتسابقين بالطبع فتى نحيل حافى القدمين ، مشمور الجلباب لكى يتيح لساقيه أكبر قدر من حرية الحركة ، وهو مايدلك على انك اذا اردت أن تشتغل « خطافا » فيجب أن يكون أول شىء تخطفه هو بنطلون يساعدك على سرعة الجرى ·

هو يجرى فى جنون ويقفز فوق ما يصادفه من العوائق ، ولا يهمه من يصطدم بهم من الناس ، ومن خلفه تجرى عشرة من النفوس الشريفة التى تريد ان تقبض عليه · لا أحد يدرى من أين وأتتهم هذه القوة والنشاط فجأة ، وهم الذين كانوا منذ لحظـــــات يسيرون متباطئين متكاسلين · ولا أحد يدرى كيف اتيح لغددهم ان تفرز كل هذا القـــدر من الادرينالين بمجـــرد ان صكت اسماعهم كلمة « حرامى » ·

ولقد كان المفروض فى الحرامى - لانه أكثر الجميع مرانا على الجرى واكثرهم رغبة فى الفرار - ان يفوز هو بقصب السبق فى المباراة ، فيظل يجرى ويجرى حتى تنقطع انفاس النفوس الشريفة التى تطارده فتكف عن المطـــاردة ولكنــــه - الحرامى - ينسى ان النفوس الشريفة لا تاتى من خلف الانسان فحسب وانما من امامه أيضا · ما هى الا لحظات حتى يجد بعض الذين أمامه يسدون عليه الطريق وقد سمعوا آخر الامر كلمة حرامى ، وسرعان ما تتحـــول المسالة من مباراة فى الجرى الى ما يشبه لعبة « المساكة » التى يلعبها الاطفال ·· الرجل يروح يمينا وشمالا ويحاول ان يجد ثغرة يزوغ منها ، ولكن الحلقة لا تبرح تضيق حوله حتى يجد نفسه قد حوصر تماما ·

وهم لا يكتفون بحصاره لحين وصول العسكرى ، بل يعرفون ان عليهم واجبا مقدسا يجب أن يؤدوه بانفسهم الشريفـــــة ، واجب تاديب وتهذيب وتطهير هذه الظاهرة الحقيرة المتمثلة فى الحرامى ·

وهنا تتحول المسالة الى ما يشبه المصارعة الحرة ، وهى حـــرة أكثر من اللازم لانها تتكون من عشرة نفوس شريفة تضرب نفســـا واحدة آثمة · هم لا يعرفون ماذا سرق الرجل ، وهل نجـــح فى السرقة فعلا أم شرع فيها وفشل ، ولـــكن شيئا من ذلك لايهمهم ، حسبهم ما يعرفون من انه حرامى وانه يجب أن يتطهر ·

صفعة باحدى الايدى الشريفة تنزل على صدغه الايمن ، واخرى على صدغه الايسر · ثم لكمة تصيب عينه وتوشك ان تفقأها ، وأخرى

تصيب شفتيه تحولهما الى ثلاث شفاه - ونفس مغرقة فى الشرف تتبرع بتوجيه روسية رهيبة توشك أن تكسر له أنفـــه · فيغطى الرجل - ذلك الحرامى الشرير - رأسه بذراعيه ليحتمى من الضربات ناسيا ان له بطنا يصلح لتلقى اللكمات ، ومؤخرة جاهزة لتلقى الشلاليت ، وعمودا فقريا يمكن بشىء من الجهد الشريف أن يحطم ، دعك من أماكن حساسة مختلفة يمكن أن يؤذى فيها بشرف أكبر ·

وتستمر هذه الاجراءات مدة غير معينة ، فالذى يحدد انتهاءها هو شعور النفوس الشريفة بأنها قد قامت بالواجب ، وانها قد نجحت فى ان تطهر جسم الحرامى من الرجس الذى فيه · والعســـكرى لا يصل فى الغالب الا بعد ان يكون الرجـــل الشرير قد أصبح بين الحياة والموت ، ويحار العسكرى هـــل ينقله الى التخشيبة أو الى المستشفى ·

هذا مشهد لا بد انك رأيته أكثر من مرة ، ولابد انك استنكرته مثلما استنكره أنا · فلماذا أغتصب حق تطبيق القـــانون لنفسى ، ولماذا اطبق على الرجل عقوبة الضرب المبرح الذى قد يفضى الى الموت فى حين اننى أعرف ان السرقة عقوبتها الحبس لا الضرب ؟ فالمسالة كلها عبارة عن شحنة شديدة من الرغبات العـــدوانية المكبوتة فى أعماق تلك النفوس الشريفة ، والتى تنتظر الفرصة للانطلاق وياحبذا لو كانت هذه الفرصة فى سبيل مقصد ظاهـــر الشرف · وقانا الله جميعا شر يوم نجد انفسنا فيه نجرى والناس من خلفنا تقـــول حرامى !

★★★

● حكـاية ابراهيم افندى ●

لعب ابراهيم افندى وشقى وحفيت قدماه حتى نجح فى الحصول على سلفية بمائة جنيه ، وعاد الى بيته فرحا مرحا مستبشرا · تغدى ونام وصحى ليشرب الشاى ، وامامه جلست زوجته تعالج خيوط الصوف بابرتى تريكو ·

قالت زوجته دون أن ترفع بصرها عن الخيوط :

ـ بنتك فيفى محتاجة ضرورى لفستان جديد .. البنت دخلت الجامعة ولازم تحافظ على مظهرها .

ومن صفات ابراهيم افندى ان له وجها يميل لونه الى الاحمرار ، فما كاد يسمع هذا التصريح من زوجته حتى صار وجهـه من حيث الحمرة أشبه بقلب بطيخة شيليـــان من بطيخ زمان . واشتغلت الزوجة بعض الفرز الجديدة ثم قالت :

ـ وسمير عاوز جزمة ضرورى ضرورى .. جزمته بقت فضيحة

فمشت فى وجه ابراهيم افندى لمسة من اللون البنى جعلته أشبه بجلد التمساح .

وعدد جديد من الفرز وقالت الزوجة :

ـ وانا بقى ما عنديش جنس حاجة البسها فى الشتا !

وكان ابراهيم افندى يستمع ولا يجيب ، مشغولا بما يجرى فى عقله من حسابات سريعة محمومة . ولون قلب البطيخة الشيليان بدأ يتدهور بسرعة الى قلب بطيخـــة بالتسميرة . وفجـــأة رفعت الزوجة يدها عن التريكو ووضعتها على خدها وهى تقول متوجعة :

ـ آى ! ضرسى عمال ينقح على .. لازم اروح لحكيم سنان !

وهنا اختفى اللون الاحمر تماما من وجه ابراهيم افندى ، وتحول الى ما يشبه قرصا من البيض المقلى (والبيضة بسبعة قروش) .

وعدد جديد من الفرز وقالت الزوجة :

ـ والبوتاجاز عيونه كلها مسدودة .. وبابقى ميتـــه فى جلدى وانا وقفه قدامه .

وغرزة سريعة وقالت :

ـ وعلى فكرة .. فاتورة التليفون جت النهـــاردة .. وآل ايه خمسة جنيه مكالمات زايدة !

وكان وجه ابراهيم افندى فى هذه اللحظة قد دخـــل من حيث اللون فى فئة التوابل ، وعلى وجه التحديد فئة الكركم . ثم تحول من مرحلة التوابل الى مرحلة الاقمشـــة الشعبية ، واصبح بلون

الدمور الذى تقف له بالساعات امام عمر افندى وفى يدك بطاقة التموين .

وطال صمته فرفعت الزوجة عينها عن خيوط الصوف ونظرت اليه قائلة :

ـ مالك يابراهيم .. ساكت كده ليه !

وكان السبب فى صمته محتاجا فى اكتشافه الى استدعاء الطبيب . وكانت السلفية فى الجيب الخلفى لبنطلونه الذى عاد بالامس من عند الرفا . وكانت كافية لشراء فستان اسود للزوجة ، وذلك بما تبقى منها بعد مصاريف الجنازة !

***

● الانتحار .. لمـــاذا ؟

فى هذه الايام التى كثر فيها الكلام عن ظاهرة الانتحار ، يخطر على بالى الروائى الامريكى الراحل أرنست هيمنجواى .

كان من عادة المرحوم أن يسافر بين الحين والآخر الى غابات افريقيا لكى يصيد الاسود والنمور وما الى ذلك من الحيوانات الكاسرة والفاخرة . وكان بالطبع يعرف مقدما أن أحد هذه الحيوانات قد ينقض عليه فجأة من حيث لا يتوقع ويتغدى غدوة العمر بهذا اللحم الامريكى الموهوب ، ولكن هذا لم يمنعه من أن يعيد المغامرة عاما بعد عام . هو يتمنى فى قرارة عقله الباطن أن تحدث له هذه المصيبة ويموت كرياضى كبير ، ولكنها لم تحدث له أبدا . ما من أسد هبره وما من نمر عضه وما من ثعبان فكر فى ان يقرصه . فكان يعود الى بلاده فى كل مرة سليما معافى خائب الامل .

ثم فتح الجريدة ذات يوم فقرأ عن حرب أهلية فى اسبانيا فقال حلو ! هذه هى فرصته لكى يموت مناضلا عن مبدأ يدين به ، وهى بغير شك أكرم له من أن يموت بين انياب أسد جائع . فحزم حقائبه وعبر المحيط الاطلسى من امريكا الى اوروبا ، وتذاكر السفر كانت فيما

يبدو ارخص فى تلك الايام منها اليوم . وهناك انضم الى الفريق العسكرى الذى يشجعه وراح يضرب النار شهورا طويلة . هو يضرب النار على الاعداء وهم يضربون النار عليه ، واذا كان قد نجح فى قتل الكثيرين فان أحدا لم ينجح فى قتله . ربما يكون قد جرح فى تلك الحرب ولكننى لا أعرف ذلك على وجه اليقين . كل ما اعرفه أنه عاد الى بلاده سليما معافى ، وكتب رواية « لمن تدق الاجراس » التى تحولت الى فيلم كبير يمثله جارى كوبر . وحيث أن المؤلف قد عاد من تلك الحرب سليما معافى ، فقد ارتأى أن ينتهى ذلك الفيلم — على سبيل التعويض — بموت جارى كوبر !

لا أسود افريقيا نجحت فى أكله ، ولا رصاص الاعداء نجح فى قتله . فيبدو ان الرجل شعر بحالة شديدة من الملل . فكتب رواية « العجوز والبحر » التى تمثل صراعا يائسا بين صياد عجوز وسمكة كبيرة مفترسة مجرمة ، ثم تناول بندقيته — المؤلف لا الصياد — وصوبها الى رأسه وأطلق على نفسه عيارا جاب أجله .

شىء واضح جدا أنه طول حياته يبحث عن الموت لسبب لا أنا أعرفه ولا هو طبعا . فلما فاته الموت بيد الاخرين قال لنفسه مافيش منها ياواد ، بيدى لا بيد عمرو !

هو كان كاتبا موهوبا ، وكان ناجحا وشهيرا وكسيبا ،ولكنه لسبب ما كان يكره نفسه — أو قل أن نفسه هى التى كانت تكرهه . كانت لا تبرح — كالزوجة المشاكسة — تسخر منه وتهزئه وتوبخه وتقول له انه حمار ثقيل الدم يستحق الموت ، فصدقها المسكين وعمل فى روحه عملته السوداء .

صحيح انه كانت له لحية كبيرة لونها أسود على أبيض ، وأن احساس الانسان بهذه اللحية طول الوقت ، ونظره اليها فى المرآة بين حين وآخر ، قد يثير فى نفسه هذا الميل الانتحارى ، غير اننا لانستطيع أن نقطع برأى حاسم فى هذه الامور .

رحم الله الاخ أرنست ، ورحمنا جميعا . واذا سمعت نفسك تشتمك فى أى يوم من الايام فقل لها فى حزم :

— أخرسى يا .... يا .... يا .... !

واترك ل تحديد الشتائم التى توجهها لها ، واعتذر عن سرد الشتائم التى استخدمها أنا فى مثل هذه الظروف باعتبارها من شئونى الخاصة .

***

❋ من التليفون الى يد الهون ! ❋

عندما ادخلونى عليه فى بيته ذلك المساء كان جالسا يدير قرص التليفون ، فلما رآنى نهض يرحب بى ويقبلنى على الخدين ثم صاح قائلا :

— شاى يا فاطمة !

وأردف وهو يجلس الى التليفون :

— عن اذنك لحظة واحدة .. ح أضرب تليفون وافضى لك حالا .. اصلها مكالمة مهمة جدا !

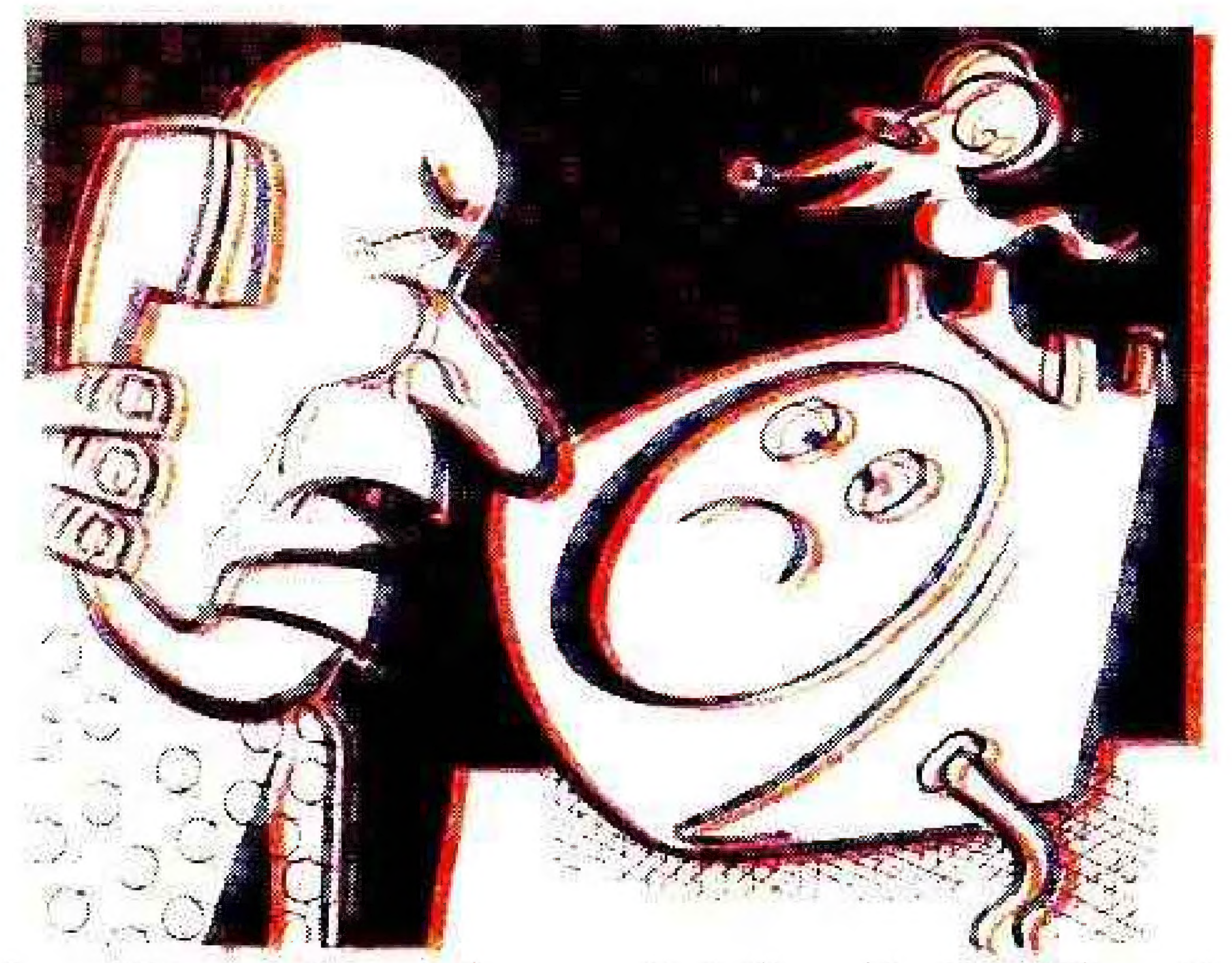
فنظرت فى ساعتى ووجدت انها السادسة تماما ، وقلت مستفسرا :

— تليفون لغين ؟

— لمصر الجديدة .

وكنا نحن فى الجيزة ، فخطرت لى ملاحظات كثيرة ولكننى اكتفيت بأن قلت آه . والرجل اذا كان يهمك الامر احدا معارفى القدماء ، وجدتنى أمر بمنزله بالمصادفة فقلت لنفسى أفاجئه بالزيارة لعلنا نسترجع بعض الذكريات . ولاحظت من فورى انه قد ترهل وبرز له من وراء الجلباب كرش عظيم ، وشعره تساقط وجبينه امتلأ بالعروق النافرة .

والشاى آتت به شغالة صغيرة فبدأت أشرب ، فى حين رفع صديقى السماعة وشرع ينقر على رافعتها التماسا لوصول الحرارة . فبينما هو ينقر وينقر — لمدة دقيقتين بالراحة — رأيته يرفع يده ويصفع نفسه على قفاه ، الامر الذى أدهشنى بالطبع الى أن سمعت شيئا يزن



بجـانب اذنى فادركت أنها ناموســة من ناموس كثير يطير فى فضــاء الحجرة ·

ويبدو ان الحظ قد واتاه بعد دقائق اذ رأيته يمد يده ويشرع فى ادارة القرص · ووضع السماعة على اذنه وانتظر أن يسمع شيئا ولكنه فيما يبدو لم يسمع أى شيء بدليل أنه عاود الطرق على رافعة السماعة ·

والعروق فى جبينه قد زاد نفورها ومع كل طرقة يهتز كرشــه وراء الجلباب بشدة · ومرة أخرى رفع يده وصفع نفسه على خده الايمن مع شيء من الهرش المناسب ·

مرة أخرى اتته الحرارة ومرة أخرى ادار القرص وراح ينتظر ، ونظرت انا فى ساعتى فوجدت أنها قد قاربت السادسة والنصف ·

ثم رأيته يطرق الرافعة بكل قوته وهو ينفخ بحرقة ، ومد يده الى قرص التليفون فى اللحظة التى خيم فيها على الحجرة ظلام دامس مفاجيء ·

ـ آدى اللى ناقص ·· هاتى شمعة يا فاطمة !

هكذا صاح صديقى ثم قال لى فى الظلام ·

ـ كل يوم على كده ·· وقدامك ساعتين بالراحة ·

ومرت دقيقة ونحن فى الظلام فصرخ الرجل يقول فى غضب :

ـ فين الشمعة يا زفته ؟!

فأتى من بعيد صوت نسائى يقول :

ـ بلاش شتيمة من فضلك !

وعلى باب الحجرة تراقص لهب شمعة فى يد الشغالة الصغيرة التى وضعت الشمعة امام سيدها وانصرفت وواصــل الرجل كفاحه التليفونى ، وانا ارقب العروق التى تزداد نفورا فى جبينه ، وكرشه الذى يهتز ويهتز على ضوء الشمعة المرتعشة · كفاح متواصل وفشــل ذريع · فنفخ الرجل نفخه جديدة هائلة من اعماق صدره المكروب ، صبت للاسف على الشمعة فاطفأتها ·

ـ هاتى كبريتة يا زفته ·· أنتو جايبين الشمع ده منين ؟

فأتى الصوت الحريمى يقول :

ـ قلنا بلاش طولة لسان !

ـ طب انكتمى احسن لك !

واقبلت البنت بعود كبريت مشتعل فى يدها ، ولكنه انطفأ قبل أن تصل به الى الشمعة · فأخرجت عودا ثانيا واشعلته فاحدث فرقعة عالية وانطلقت منه قذيفة قوية نحو الرجل ، اصابته والحمد لله فى جبينه وليس عينه · وباشتعال الشمعة عاود الدق على التليفون وهو يهرش بشدة فى كرشه ، اذ نجحت ناموســة متطورة فى أن تقرصه من فوق الجلباب ·

وهنا وجدت نفسى أضحك بالرغم منى ضحكات سريعة متلاحقة أول الامر ثم تحولت الى قهقهة لا اراديه عارمة فراح الرجل يزغر لى نحوا من دقيقة ثم قال :

ـ بتضحك على أيه انت راخر ؟ فيه قدامك حاجة تضحك ؟

فلم أجبه بالطبع ·· فقال :

حضرتك جاى علشان تضحك على ؟ يعنى بقيت مضحكة على آخر الزمن ؟

وفجأة رفع السماعة وهب وقد نفرت العروق فى جبينه بصــورة فذة ، بحيث انه لو طاف حوله بعض طلبة الطب لامكنهم أن يدرسوا الدورة الدموية على الطبيعة · وجحظت عيناه جحوظا شديدا وانطلق يجرى الى جوف البيت المظلم · ثم عاد وفى يده شيء يلمع على ضوء

الشمعة ، وسرعان ما تبينت انه يد الهون · فى الصالة حيث جلست وقف الرجل كالمجنون ينقل البصر بينى وبين التليفون وبين جوف البيت المظلم فنهضت بسرعة وخرجت بدون سلامو عليكم ·

وفى الايام التالية تابعت صفحات الوفيات فى الصحف فلم أجد اسمه أو اسم زوجته ، والى هذه اللحظة لا أعرف من كان المقصود بيد الهون ، التليفون أم انا ·

★★★

بطانيــة زرقاء فى الزحـام !

لا أحد يدرى لماذا بدت ملامح الزهو والفخار على وجه برعى أفندى وهويسير مع زوجته فى الطريق · ربما كان ذلك لانه يعلن للجميع كيف نجح فى الحصول على قلب هذه الانثى اللطيفة ، أو كيف نجح فى العثور على شقة يعاشرها فيها ، تلك المعاشرة التى تمخضت عن نجاحه الساحق فى أن ينجب منها ذلك الطفل الصغير الرضيع الذى يحمله على ساعديه فى بطانية صوف زرقاء ·

وصل ذلك الثالوث من الشارع الجانبى الى الشارع العمومى ووقف على محطة الاتوبيس وكان قد سبقهم اليها عدد من الناس يتراوح بين الخمسين والمائة ، رجال ونساء وشيوخ وشبان ، وأطفال يمسكون بأيدى أمهاتهم ، وآخرون فى بطونهن ، يقفون فى انتظار متوتر لاوتوبيس يرفض أن يصل ، وفى تحفز واضح للهجوم عليه لحظة وصوله · ومرت دقائق قبل أن يتراءى للعيون من بعيد منظر أتوبيس ، وكان واضحا من ابتعاده عن رصيف المحطة انه لا ينوى أن يقف عندها ·· فلماذا يقف وقد اكتظ بالركاب عن آخره ، فى جوفه وعلى سلالمه وفوق نوافذه ، ومال بشدة على اليمين يوشك أن ينام بهم على جنبه ·

وتراءى للعيون بعد لحظات اوتوبيس آخر ، يجرى مسرعا كأنه فى سباق محموم ، ويبدو من أمره أن شيئا أقل من المقدرة الالهية لا يمكن ان يرغمه على الوقوف ، كالسهم طرق امام المحطة وسط لعنات الجميع · وكبس على الاوتوبيس السابق ليسبقه فكاد يرغمه على

طلوع الرصيف · فاما أن سائقه على موعد فى آخر الخط مع بريجيت باردو · واما انه يريد اللحاق بزميل له فى الجاراج لكي يرقعه علقة ، أو غير ذلك من احتمالات ·

فى خلال تلك الدقائق كانت نظرة الزهو قد بدأت تفتر بعض الشىء فى عيون برعى افندى ، ويمد يده ليمسح عن البطانية الزرقاء ما تطاير اليها من رذاذ اثارته عجلات الاوتوبيس المجنون من بقايا مياه طافحة على ارض الطريق · وبدرت من جوف البطانية الزرقاء زمجرة غامضة للطفل ، فطبطب الرجل عيه وهدهده حتى سكت · وبنظرة عابرة الى جانبه لمح شابا غليظا اسمر اللون يحملق الى زوجته ، حملقة طويلة متأنية مستوعبة متمعمة · فصوب اليه برعى افندى زغرة شـديدة ليزجره فلم يزدجر ، اذ انه ما كان يمكنه ان يلحظ تلك الزغرة فى انهماكه الشـديد فى تأمل السيدة موضوع البحلقة · فسحب برعى أفندى زوجته ووقف بها فى مكان آخر ، بجانب رجل عجوز وامرأة بدينة حامل ·

فى عيون برعى أفندى بدأت نظرة الزهو تختفى تماما ، وحلت محلها نظرة غيظ مشوب بالمرارة · واوتوبيس ثالث وصل وتفضل بالوقوف ، واناس كثيرون هاجموه وانتصروا عليه ، ولم يكن ذلك بالطبع فى مقدور رجل يحمل طفلا رضيعا ملفوفا فى بطانية صوف زرقـــاء ·

واوتوبيس رابع وخامس وسادس على نفس الحال ، الى أن أتى السابع وكان فى حال تغرى الانسان بمغامرة الركوب ، فدفع برعى أفندى زوجته لكى تركب قبله ، فصعدت على السلمة الاولى للاوتوبيس وركبت · وحمل برعى أفندى طفله على ذراعه اليسرى لكى يمسك بيده اليمنى حديدة السلم ، فى اللحظة التى شعر فيها بضربة كتف شديدة خلعت يده وزلزلت قدميه، وخيرته بين أن يتخلى عن الاوتوبيس أو أن يسقط على الارض بالطفل الملفوف فى البطانية الصـــوف الزرقاء ·

ولمسة طارئة من اليأس الاسود شاعت فى عيون برعى افندى وهو

يرقب الاوتوبيس المبتعد ، وعلى سلمه قد تشعلق ذلك الشاب الغليظ الاسمر الذى لا حاجة بنا الى القول بانه هو صاحب ضربة الكتف سالفة الذكر ·

فتلاطمت فى دماغ برعى أفندى افكار كثيرة قاتمة اللون مغرقة فى الحزن ، ولكنه ما لبث أن استبعدها ـ اذ كان رجلا عمليا ـ وراح يستعرض الاحتمالات المختلفة للموقف · أغلب الظن ـ هكذا قال فى نفسه ـ ان زوجته سوف تكتشف غيابه فتنزل من الاوتوبيس فى المحطة التالية وتقف هناك فى انتظاره ، أو تقفل راجعة اليه حيث يقف فى المحطة السابقة ·

على الرصيف سار برعى افندى بالسرعة المناسبة لرجل يحمل طفلا فى بطانية صوف زرقاء ، وفى الطريق قابلته نساء كثيرات ليس بينهن زوجته · وبوصوله الى المحطة التالية راح يتأمل الوجوه فلم يجد بينها أى أثر لزوجته ، فأغلب الظن (هكذا قال له مخه العملى) ان الزحام قد حال بينها وبين النزول من الاوتوبيس فى هذه المحطة ، أو أن الاوتوبيس نفسه قد رفض ان يتوقف عندها ، ومن ثم فسوف تكون فى انتظاره فى المحطة التالية ·

ولكنها للاسف لم تكن هناك فى انتظاره ولا فى المحطة الثالثة ولافى الخامسة · وعند السادسة كان برعى أفندى يلهث من التعب ، وكان الطفل قد بدأ يصرخ باعلى صوت عنده ، فانخفض برعى أفندى وجلس على الرصيف يائسا · ودموع ترقرقت فى عيونه متجاوبة مع دموع الطفل ، وعبرة سالت من عينيه فمد يده ليمسحها عن البطانية الصوف الزرقاء ·

★★★

كتاب اليوم

ثقافة اليوم وكل يوم

رئيس مجلس الإدارة :
موسى صبرى

رئيس التحرير :
أمين محمد عدلى

نائب رئيس التحرير :
عبد العزيز عبد العليم

مدير التحرير :
حسين فريد

العدد ١٧٤ — شوال ١٤٠٠ — سبتمبر (ايلول) ١٩٨٠

الإدارة : أخبار اليوم ٦ شارع الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط
تلكس دولى ٩٢٢١٥ ـ محلى ٩٢٢٨٢

الاشتراكات

جمهورية مصر العربية :
قيمة الاشتراك السنوى ٣,٥٠٠ جنيه مصرى

البريد الجوى :

دول اتحاد البريد العربى والافريقى { ٥ جنيه مصرى / ٩ دولار امريكى أو ما يعادله
باقى دول العالم (أوربا والامريكتين وآسيا واستراليا) { ١٠ جنيه مصرى / ١٥ دولار امريكى أو ما يعادله

• ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور
• ترسل القيمة الى الاشتراكات ١٣ ش الصحافة القاهرة ت ٧٤٨٨٤٤ (٥ خطوط)

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٤٣٠٩ / ٨٠

الترقيم الدولى ٢ ـ ١٠ ـ ٧٣٢٧ ـ ٩٧٧ ـ ISBN